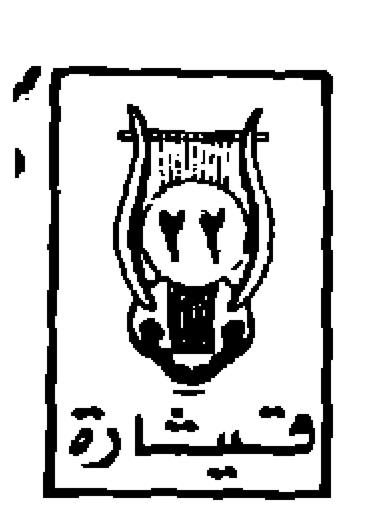
روايات الجيل الرومانسية



تأليف
مجدي صابر

عدالة السماء



روايات الجيل الرومانسيّة



عدالة السماء

تأليف
مجدي صابر

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

عيناه الرماديتان

أغمضت «مديحة» عينيها وهي تشعر بإرهاق بالغ.. تسلل النوم إلى جفنيها رويداً.. وتباطأت أنفاسها وهي جالسة إلى مكتبها وعقارب ساعة الحائط الذهبية أمامها تشير إلى العاشرة مساء.

طوال النهار ومنذ التاسعة صباحاً لم تكف عن العمل، وتلقي المكالمات الهاتفية والدق على الآلة الكاتبة ومقابلة العملاء، حتى أحست بجسدها يخذلها ووعيها يحاول التملص من قبضتها بحثاً عن لحظة راحة أو إغماضة جفن.

فجأة علا صوت هادئ من «الديكتافون» أمامها يقول: «مديحة».. أريدك حالاً.

انتفضت «مديحة» في الحال مكانها، واستعادت يقظتها وتسارعت أنفاسها.. وبدت كأنما استردت نشاطها

المفقود. التقطت مرآتها الصغيرة من حقيبتها وألقت إليها نظرة سريعة متعجلة.. كان الإرهاق واضحاً في عينيها السوداوين العميقتين صانعاً هالات داكنة تحتهما لم تفلح وسائل التجميل في إخفائها. وكانت هناك خصلة من شعرها الأسود الفاحم الطويل قد تبعثرت فوق وجهها، كان وجهها برغم ذلك يبدو بريئاً جميلاً، وقد بدت صاحبته كأنها تلميذة بالمدرسة الثانوية في طريقها إلى مدرستها، تداعبها أحلام وخيالات ساحرة.

وفي سرعة أخرجت «مديحة» مشطاً كبيراً من حقيبتها أعادت به ترتيب خصلة شعرها النافرة، وقفزت من مكتبها صوب باب مكتب مدير الشركة وصاحبها «كمال بك».. وهي تلقي على ثوبها نظرة أخيرة.

طرقت الباب في رقة ودلفت إلى الداخل دون صوت.. وفي الحال اتجه بصرها صوب «كمال» كما لو كانت خيوط مغناطيسية تشدها إليه. وتعلقت عيناها بالوجه الوسيم الذي اختلط شعر رأس صاحبه الأسود باللون الرمادي وشاربه العريض الكث الفاحم السواد، الذي كان يضفي على صاحبه وقاراً

أكبر.. وقد تجلت أناقته البالغة في حلته الرمادية وربطة عنقه التي لها لون النبيذ المعتق..

حاولت «مديحة» أن تتحكم في أنفاسها المتسارعة، وعيناها معلقتان بعيني «كمال بك» الرماديتين المدربتين جيداً على إخفاء أي مشاعر بداخله. وقد كانتا بلونهما الجذاب كأنما تضيفان سنًّا أكبر على صاحبهما، بالرغم من أن عمره الحقيقي لم يكن قد تجاوز الثالثة والثلاثين.

كان «كمال» منهمكاً في مطالعة بعض الأوراق أمامه، وهو ما أتاح لـ«مديحة» مراقبته في سرور، كأنها توشك أن تحتضنه بين جفنيها وتسبل فوقه رموش عينيها السوداء العريضة المشرعة كسهام «كيوبيد» التي لا تخطئ أهدافها أبداً.

رفع «كمال» عينيه عن الأوراق التي كان يتفحصها، وتأمل «مديحة» بنظرة قصيرة جعلتها تفيق من أحلامها، وقال في لهجة اعتذار: إنني آسف لأنني تسببت في تأخيرك عن العودة للمنزل حتى هذا الوقت.

أجابته بسرعة وابتسامة عريضة تضيء وجهها: لا تهتم بذلك يا «كمال بك».

مط شفتيه في قليل من عدم الرضا وقال:

دائماً أتسبب في تأخيرك كل يوم.. وأراك متسامحة دائماً ولا تطلبين حتى علاوة إضافية أو مكافأة.

تورد وجهها وقالت في ثقة:

المال ليس هو كل شيء في هذا العالم.

ولكنه تراجع بمقعده للوراء، وحدق فيها كما لو كان سيلقي درساً على طفلة ساذجة، وهز رأسه نافياً وقال:

إن هذا القول ليس صحيحاً تماماً.. فالمال هو عصب الحياة، ولولاه لتوقفت الحياة تماماً.. وإن كان هذا لا يمنع أن هناك أشياء كثيرة لها أهمية في حياتنا.. ولكن المال هو أهمها دون شك.

ونقر بقلمه الذهبي الأنيق فوق حافة مكتبه وهو يتأملها بعينيه العميقتي الغور كأنه يقرأ أفكارها وينفذ إلى أعماقها، حتى أنها ارتجفت لمنظر عينيه الآسرتين اللتين لم تستطع التحديق فيهما طويلاً، فأطرقت برأسها وقد تخضب وجهها بلون الدماء، وتسارعت أنفاسها لدرجة اللهاث.. كانت دائماً تنهزم أمام منطقه ولا تجد الحجة الملائمة للرد عليه.

كان أكثر منها خبرة ودراية بالحياة.. وكان جدالها يكشف سذاجتها إلى حد كبير، فآثرت الصمت وهي تذوب خجلاً.

وقال «كمال» بصوته الهادئ المجرب: إنك لا تزالين صغيرة على الخبرة بمهام تلك الأمور.

اندفعت قائلة بلهفة كأنها تدفع عن نفسها تهمة:

إن عمري ٢٢ عاماً.

تلاعبت ابتسامة فوق شفتيه وهو يقول لها:

كنت أظنك أصغر من ذلك بعام أو اثنين.

بدا شيء من الضيق في عيني «مديحة»، وتساءلت إن كانت ملاحظته الأخيرة تعبر عن نظرته إليها كفتاة صغيرة غريرة لم تجرب من الدنيا شيئاً.. أم هو انتقاص من قدرتها على العمل.

وأنقذها «كمال» من حيرتها وضيقها عندما مد إليها رسالة خطها بقلمه وهو يقول: هل يمكنك كتابة هذه الأسئلة بالإنجليزية على الآلة الكاتبة لإرسالها في الغد إلى وكيلنا في «لندن».. إن كان هذا سيعطلك فيمكنك القيام بهذا العمل غداً.

أجابته بسرعة ودون تفكير: سوف أكتبها حالاً، فلا يصح تأجيل أعمال اليوم للغد، إن كان بالامكان القيام بها.

كانت كأنما تدافع عن نفسها أمامه، فرمقها بابتسامة أعرض قبل أن يجيبها:

رائع.. هذا ما كنت أنتظره منك.

وغادر مقعده متجهاً نحوها.. ومد الرسالة إليها.. أوشكت أن تتعثر هرباً من مواجهة عينيه اللتين احتوتا كل تفاصيلهما في حدقتيهما.. وبلا وعي مست أصابعها كف يده العريضة وعطره الأنيق ينفذ إلى خياشيمها ومسامها ويخترق كل ذرة في كيانها ويوشك أن يسقطها في دوار.

وكأنما سرى في بدنها تيار كهربائي.

وأحست في اللمسة خدراً أوشك أن يسلب وعيها.. أن يغيبها عن الواقع.. كأن في اللمسة سحراً رائعاً لذيذاً لا مثيل له.. لم تجربه في حياتها أبداً.. وكأن عطره يحمل خدر العالم كله.

وتقابلت عيونهما في نظرة خاطفة دون قصد.. هو بوجهه الوسيم الأنيق ونظرته الواثقة الهادئة، وهي بأنفاسها المتهدجة

وأطرافها المرتعدة وعينيها الباحثتين عن ملجأ ومهرب من غزو عينيه.

وأحست «مديحة» كأنما يلفها دوار.. كأن النظرة تزلزلها.. كأن عيني هذا الرجل الوسيم مغناطيس لا تقدر على الإفلات من جاذبيته مهما كانت قوتها.

كأنها شلت في تلك اللحظة الخاطفة، حتى أنفاسها احتبست ولم تعد قادرة حتى على التقاطها.. لو أنها تمنت الموت.. لتمنت أن تموت في تلك اللحظة بذاتها.

وأفاقت على صوته وهو يقول لها: كم لك من الوقت وأنت تعملين سكرتيرة لي؟

وكان التساؤل بمثابة لطمة جعلتها تفيق سريعاً، فشحب وجهها بشدة وغاب تورده، لم تدر سر السؤال للوهلة الأولى، ولكنها أجابت في اضطراب: ثلاثة أشهر.

هز «كمال» رأسه دون أن تفصح عيناه عن الغرض من السؤال، واستدارت «مديحة» لتغادر الحجرة بخطوات متعثرة وهو يتابعها بعينيه اللتين تجيدان إخفاء ما وراءهما من مشاعر.

وجاءها صوته قبل أن تخطو مغادرة حجرة مكتبه: لا تنسي فنجان القهوة المضبوط.

وأحست أنها تسترد إرادتها ووعيها بانفلاتها من دائرة نظراته وعطره.. فاستردت أنفاسها وأغمضت عينيها في بعض الارتياح.

ولكن كنكة القهوة فارت منها وهي واقفة أمام الموقد شاردة غائبة عن الوعي.. وأسرعت لتجهيز أخرى وهي تعض شفتيها في قسوة وضيق.

كانت تسأل نفسها ربما للمرة الألف ما هذا الذي تفعله وتشعر به.. لماذا تحس بمقاومتها تنهار وتتلاشى أمام نظرة واحدة من عيني هذا الرجل.. لماذا ترتجف عند سماع صوته وتفقد سيطرتها على حواسها عندما تشم رائحة عطره.

كانت هي نفسها لا تدري لماذا تبقى في عملها إلى هذا الوقت المتأخر بعد انصراف كل الموظفين منذ ساعات طويلة.. لماذا تذهب إلى العمل مبكرة.. ساعة أو أكثر كل يوم.. وعندما تغادر مكان العمل عائدة إلى البيت تبدو حزينة مثقلة بالهموم مهما كانت درجة تعبها وإحساسها بالمشقة وحاجتها

إلى الراحة. كأنها تريد أن تكون بقرب هذا الرجل دائماً وإلى الأبد، وألا يغيب عن عينيها لحظة واحدة.. ولا عن وعيها طرفة عين.. تتمنى لو أنه استقر بين ضلوعها وفي شغاف قلبها.. لو أنه سكن أنفاسها وتدثر بأهدابها.

حتى أحلامها.. صارت أسيرة ملامحه ووجوده.. كأنه قدرها أو فارس أحلامها الذي لا حياة لها بدونه.. في يقظتها وأحلامها..

هو.. «كمال بك الشريف».. صاحب إحدى أهم شركات أجهزة الكمبيوتر الصغيرة في مصر.. وصاحب الرصيد الذي يتعدى الملايين، وتحتل صوره صفحة الاجتماعيات في الجرائد كل يوم، وتذاع إعلانات شركته على شاشة التليفزيون لدقائق كل يوم، حتى ليكاد يكون شخصية عامة معروفاً للكثيرين.

وهي.. مجرد سكرتيرة له لا يزيد مرتبها عن ثلثمائة جنيه.. ولولا أن اختارها «كمال» بنفسه من قسم الحسابات لتصبح سكرتيرته منذ ثلاثة أشهر لظلت في هذا القسم تعمل بنصف مرتبها الذي تحصل عليه في تلك اللحظة.

واشتم أنفها رائحة القهوة المحترقة مرة ثانية، فأفاقت من

شرودها وقد احتقنت عيناها فصارتا بلون الدماء.. غضباً على شرودها.

وأخيراً خطت الى مكتبه وهي تقدم له فنجان القهوة بيد.. والخطاب المحرر على الآلة الكاتبة بيدها الأخرى.

وقال «كمال» باسماً وهو يرشف فنجان القهوة: منذ اختبرت براعتك في تجهيز القهوة لم أعد راغباً في تناولها إلا من يدك وحدك.

أربكتها كلمته ولم تدر إن كانت مديحاً خالصاً.. وألقى «كمال» نظرة على الخطاب ثم قال: في الصباح أرسلي هذا الخطاب إلى وكيلنا الإنجليزي بالبريد الدولي السريع. ورمقها بنظرة قصيرة قبل أن يضيف: والآن يمكنك الانصراف، فقد تأخرت ما فيه الكفاية.

قبل أن تتحرك مغادرة المكان قال لها: نسبت أن أخبرك بشيء.. سوف تنالين علاوة منذ بداية الشهر القادم.. هل تكفي خمسون جنيها؟

همست تقول وإحساس الخجل الشديد يطوقها:

شكراً لك.

غادر مقعده وهو يقول: لقد تأخر بك الوقت..

ثم استطرد:

هل أوصلك بسيارتي لمنزلك؟

أوشكت أن تهتف فرحة بالموافقة كأنها تتمنى لو بقيت إلى جواره لحظات أخرى مهما كانت قصيرة.. ولكنها كبتت مشاعرها بسرعة وهي تتساءل ماذا سيظن بها إن وافقت على عرضه؟

وهمست تقول في صوت مختنق ووجه منكس: شكراً لك.. سوف أستقل «تاكسي».

وأسرعت تغادر حجرة المكتب قبل أن تسمع صوته مرة أخرى.. والتقطت حقيبتها وهرولت مغادرة مقر الشركة.. وأشارت إلى أول «تاكسي» مر بها، ودست نفسها في المقعد الخلفي وهي تجاهد لتمنع دموعها.

كانت تلوم نفسها بشدة.. لماذا تفعل بنفسها ذلك.

ثلاثة أشهر كاملة وهي تفعل الشيء نفسه.. منذ اليوم الأول الذي صارت فيه سكرتيرة لـ «كمال الشريف».. وهي

تشعر بنفسها أسيرة له لا تجرؤ على أن ترفض له طلباً.. بل لا تستطيع.

تشعر كأن حياتها توقفت منذ ذلك الوقت.. كأنه القوة الدافعة لها على الحياة.. بإشارة منه يحركها وبأخرى تسكن حركتها بلا حياة أو خوف.

كانت موقنة أنها تحبه.. حبا جارفاً مستقراً في أعماقها.. لا سبيل إلى الهرب منه أبداً.. في البداية كانت تخشاه.. في وعيها قصص كثيرة عن تسلط رجال الأعمال وأصحاب الشركات على سكرتيراتهم.. وإلى أين تؤدي تلك المهنة في النهاية بأي سكرتيرة غريرة.

ولهذا كانت حذرة إلى أقصى حد.. فقد كانت كرامتها هي كل ما تملكه في الدنيا، ويستحيل عليها التفريط فيها ولو بكل كنوز العالم.. ولكن «كمال» لم يحاول أبداً معها أي شيء.. ولم يكن ما بينه وبينها سوى العمل، لم تضبطه يوما متجاوزاً حدود العمل، بنظرة أو كلمة أو حتى إشارة..

وكأنه قدم إليها شهادة بحسن سلوكه.. فتهاوت قلاع حذرها سريعاً معلنة أنه لا عدو هناك.. بل رفيق وحبيب.

وتحول حذرها إلى لهفة واشتياق ورغبة في التلاقي.. ولكن «كمال» في المقابل كان محايداً لا تفصح عيناه عن شيء.. وهي بالنسبة له ليست سوى سكرتيرة تؤدي عملها بكفاءة.

وأحزنها ذلك وآلمها.. وهي لا تدري ماذا تريد منه.. ولا ما هي نهاية مشاعرها المضطربة الفوّارة.

كان هذا أكثر ما يؤلمها.. إنها نفسها لا تدري ماذا تريد.. من ذاتها ومنه.

وتوقف «التاكسي» بعد دقائق..

وهرعت إلى «البنسيون» الذي تقيم فيه.. ودست مفتاحها في قفل بابها وعيون نزيلات «البنسيون» وصاحبته ترمقانها في شك واتهام. ونصف عيونهن الأخرى معلقة بساعة الحائط التي تشير للحادية عشرة مساء..

وأغلقت بابها عليها ووقفت خلفه كأنها تحتمي به من العالم كله.. من تلك العيون الفضولية التي توشك أن تهتك أسرارها وتفتش في مشاعرها.

لم يكن لها صديقة ولا قريبة.. لا أب ولا أم بعد أن ماتا وهي صغيرة.. ليس لها إخوة ولا إنسان في العالم يمكن أن يمد

لها يد المعاونة أو النصح.. أو تشكو له همومها وآلامها وتنتظر منه النصيحة.

ألقت نفسها على فراشها ودموعها تتساقط برغمها.. عاشت حياتها كلها تتحاشى الشبهات.. كانت تدرك أنها وحيدة وضعيفة بلا سند أو حماية، رصيدها الوحيد هو كرامتها وسمعتها.. وقد حرصت عليهما أشد الحرص.. كأنهما حياتها ذاتها.. استطاعت بالكاد أن تحصل على شهادة الدبلوم التجارية المتوسطة قبل أن ينهار مسكنها الذي تركه لها أبوها قبل رحيله، فصارت بلا مأوى.. منذ ذلك الحين وهي تكد وتشقى وتعمل لأجل أن تضمن المال الذي يكفي لإطعامها ودفع إيجار «البنسيون».. لا تطمع في الحياة أكثر من ذلك.

لم يكن مهماً أن تغير فستانها أو حذاءها وحقيبتها.. لم تشعر بحاجة إلى ذلك أبداً ولا أخجلتها نظرة الناس إليها.. ولكن ذلك كله تغير تماماً.. بعد أن صارت سكرتيرة «كمال».. صارت منذ لحظتها تشعر بحاجتها إلى أشياء كثيرة.

كان أكثر ما تحتاجه.. قلب ينبض إلى جوار قلبها.

ولم يختر قلبها سواه هو.. «كمال».. كان اختياراً مستحيلاً.. وعيناه الرماديتان لا تفصحان عن شيء.. ولا تنطقان حتى بنظرة صامتة.

وهمست تقول لنفسها في ضعف ووهن ودموعها تغرقها: لم أعد قادرة على تحمل كل هذا الألم بعد الآن.. يجب أن ابتعد عنه.. لا سبيل لي غير ذلك لأسترد سيطرتي على مشاعري وإرادتي.. سوف أقدم استقالتي من العمل غداً، وسأبحث عن عمل آخر مهما كان ضئيل الأجر بالغ المشقة.

وأغمضت عينيها والصداع يوشك أن يحطم رأسها.. وأراحها النوم من عذابها.

* * *

طلب للزواج

واتجهت مباشرة في اليوم التالي إلى قسم شؤون العاملين تاركة ورقة باستقالتها.. ثم غادرت المكان دون أن تلقي نظرة أخيرة على «كمال» وكأنها تقتلع نفسها من أرضه.. تبتر جذورها.

وعادت إلى حجرتها بـ«البنسيون».. أغلقت الباب عليها وجلست متقوقعة شاردة ساعات طويلة.. لم يكن معها من المال غير القليل.. وكانت في حاجة إلى عمل جديد. ولكنها لم تكن راغبة في أي شيء.

ظلّت مسهدة طوال الليل بلا نوم، وهي تتقلب في فراشها، ويخيل إليها أنها ترى وجه «كمال» يطل عليها من كل ركن في الحجرة.. حتى لم تعد تحتمل فانفجرت في بكاء حار وطويل لم يرحها منه غير ضوء الفجر الذي طواها بين أحضان النوم.

وفي الصباح التالي غادرت «البنسيون» كما لو كانت تهرب من سجن، وقضت بعض الوقت تتمشى وهي تلقي نظرات تائهة على واجهات المحلات ووجوه العابرين حابسة دموعها.

كان ألمها يتضاعف ويتزايد.. وسكين الندم تمزقها. كيف طاوعها قلبها أن تفعل ما فعلته.. أن تترك عملها بإرادتها.. أن تقطع أسبابها بالحياة وتمزق الحبل السري الذي يمنحها أسباب البقاء والاستمرار.

كيف ستحتمل الحياة بدونه.. كيف ستقوى على البقاء والاستمرار؟

وقادتها قدماها إلى مبنى الشركة، ووقفت طويلاً على مسافة تراقب مدخل المبنى دون وعي.. كانت تتمنى رؤيته لحظة خاطفة كأنها أرض عطشى، صحراء قاحلة تتمنى ولو قطرة ماء.. ولكن القدر عاندها فغادرت مكانها بساقين مثقلتين بالهموم والأحزان دون أن تراه.

وقادتها قدماها إلى «البنسيون» ثانية.. وصعدت السلالم بلا وعي.. وما كادت تدنو إلى صالة «البنسيون» العريضة

الخالية من النزيلات، حتى تسمرت مكانها وعيناها مصوبتان في ذهول على الشخص الجالس في صدر الصالون إلى جوار صاحبة « البنسيون » التي تبالغ في الترحيب به.

شلت.. ضعفت.. زلزلت، صارت أنفاسها كبركان انفجر بغتة.

خيل إليها أنها تتوهم.. ولكن وجوده كان حقيقة.. ماثلاً أمام عينيها بشاربه الكث وعينيه الرماديتين الآسرتين.. وارتعدت أطرافها وهي تتساءل في ذهول: كيف عرف مسكنها وهي التي لم تترك عنواناً في ملف خدمتها غير مسكن والدها المهدم؟ ما الذي أتى به إليها.. ماذا يريد منها؟

نهض « كمال » واقفاً عندما رآها، وحدق فيها في صمت بعينيه الرماديتين اللتين اكتستا بتعبير من اللوم لأول مرة. وقالت صاحبة « البنسيون » وهي تقفز بجسدها البدين: ها قد أقبلت « مديحة » أخيراً.

واقتربت من « مديحة » مواصلة: إنه ينتظرك منذ مدة طويلة.

لم تنطق « مديحة » بكلمة.. وأشاحت صاحبة « البنسيون » بيدها مضيفة:

إنني في الجوار، إذا احتجتما إلى أي شيء فاطلباني.

وأسرعت إلى ركن تتوارى فيه، كان يسمح لها باستراق الحديث جيداً.

لم تتحرك «مديحة» من مكانها، ولا «كمال» كذلك. بقيا يترامقان لحظة، وافتر ثغر «كمال» عن ابتسامة صغيرة قائلاً: هذا هو ترحيبك بي..

أفاقت من صدمتها المفاجئة وقالت وهي تبتلع لعابها: إنني آسفة، فقد فاجأني وجودك هنا.

قال باسماً دون أن تفصح لهجته عن معنى مقصود:

وماذا كنت أفعل وقد فاجأتني استقالتك التي لم اعلم بأمرها إلا أمس مساء.

لم ترد.. واقترب «كمال» منها.. توقف على مسافة خطوات قليلة سمحت لعطره بالنفاذ إلى أعماقها، فأصابها دوار خفيف.

وقال «كمال» في رقة: لماذا لم تخبريني بأمر هذه الاستقالة من قبل لنناقشها معاً؟

أجابته وهي تهرب بعينيها بعيداً:

لقد قررت الاستقالة فجأة في نفس اليوم.

مد أصابعه ليدير وجهها نحوه.. ارتجفت لملمس أصابعه، وتضاعف اللوم في عينيه وهو يقول لها:

وما هي الأسباب التي دفعتك للاستقالة.. أعني هل هي أسباب تخص العمل.. إذا كان تأخرك في العمل أو قلة راتبك هما السبب أو حتى طريقتي في معاملتك، فكل هذه الأشياء يمكن علاجها.

ارتعدت شفتاها، حيرتها الإجابة ولم تدر ما تقوله، وأخيراً همست تقول في وهن: إن أسباب تقديمي الاستقالة.. شخصية.

قال باسماً: هل يعني هذا أنك تريدين حرماني بلا سبب من فنجان القهوة المضبوط الذي كنت تعدينه لي؟

تطلعت إليه في دهشة وضايقها أن وجدته يبتسم كأنه قال نكتة.. لا يدري أن كلماته سهام تنفذ إلى قلبها.. ولاحظ «كمال» ارتعاشة كفيها وتخاذل ساقيها فهمس يقول لها: لماذا لا تجلسين.

وجلسا متواجهين وعيناه تحاصرانها كأنما تؤكدان لها أنه لا مهرب لها ولا نجاة..

وأتت صاحبة «البنسيون» بفنجاني شاي وضعتهما أمامهما وقالت لـ «كمال»:

إن «مديحة» ابنة حلال ويتيمة، فسامحها إن كانت قد ارتكبت أي خطأ، فليس لها أحد في العالم ولا أي مورد رزق غير عملها.

تطلعت إليها «مديحة» بعينين داميتين وأوشكت على الإنفجار في البكاء كأنها تلقت لطمة قاسية. ولكن «كمال» ربت فوق كتفيها بسرعة مهوناً، فتصاعدت دقات قلبها إلى حد اللهاث، وواجهها في رقة قائلاً: ليس فيما قالته صاحبة «البنسيون» أي شيء جديد لا أعرفه.

تطلعت إليه بدهشة فواصل قائلاً: اعتدت دائماً أن أتعرف إلى كل خصائص سكرتيراتي حتى الشخصية منها، لأطمئن إلى أن أسرار شركتي ستكون في أيدٍ أمينة.

نكست «مديحة» رأسها وهي تشعر بدوار ووهن لا حد لهما.. لقد كان يعرف كل شيء عنها منذ اللحظة الأولى، ولم

تفصح عيناه عن شيء، وهي التي حرصت على كتمان أسرارها عن العالم كله.

وقال «كمال»: صدِّقيني يا «مديحة».. لقد احترمتك جداً.. فأنت مثال للاجتهاد والكفاح والعزيمة والثقة بالنفس، وكل هذا أحترمه فيك دائماً. كما احترمت مشاعرك أيضاً تجاهي.

تطلعت «مديحة» صوبه بوجه ذاهل ولهثت أنفاسها واضطرب كل بدنها وقد فاجأها ما قاله فانعقد لسانها.. وواصل «كمال»: لا تظني أن مشاعرك كانت خافية علي.. فقد جربت الحياة بحلوها ومرها وصرت أستطيع قراءة أفكار الآخرين بمجرد النظر إليهم..

نكست «مديحة» رأسها وعضت شفتها السفلى بقسوة وأوشكت أن تدميها.. وتمنت في تلك اللحظة أن تختفي عن عيني «كمال» إلى الأبد، حتى لا تواجه قسوة الواقع. لم تدر أن مشاعرها كانت مفضوحة إلى هذا الحد، فتمنت لو أن الموت طالها قبل أن تواجه هذا الموقف.

ولاحظ «كمال» ألمها الحاد فهمس يقول في رقة:

لا داعي للندم والألم يا عزيزتي، فمشاعرنا ليست ملكنا،

وأنت لم تخطئي في مشاعرك البريئة، لقد احترمت مشاعرك دائما، وعندما تقدمت باستقالتك، لم أكن في حاجة لمزيد من الإدراك لأتأكد من السبب الحقيقي الذي دفعك لتقديمها وأنت تخوضين صراعاً مريراً مع نفسك.. وقد احترمت فيك احترامك لذاتك، ومعركتك التي حسمتها بقرارك هذا، فالقليلون منا هم القادرون على التغلب على مشاعر قلوبهم مهما أدمتهم الجراح.

وأوشكت «مديحة» على البكاء.. وتمالكت نفسها بإرادة هائلة وهمست تقول بصوت مختلط بالدموع: لماذا تعذبني بكلماتك هذه.. هل جئت هنا لتنكأ جراحي وتزيد آلامي وتضاعف من أحزاني وندمي؟

مس كفيها برفق وقال:

لا.. صدِّقيني.. إنني لم أجئ إلا لأنني أيضاً لم أعد أستطيع الاستغناء عنك.

تطلعت إليه «مديحة» في ذهول، وهي تشك إن كان ما قاله هو الصدق، وواصل «كمال» في لهجة هادئة: لعلك ستندهشين مما أقول ولكنها الحقيقة.. فقد نما إعجابي بك ببطء وتحول إلى شيء آخر.. ولكني اعتدت دائماً التحكم في

مشاعري وإنضاجها على مهل لأكون على يقين من حقيقتها.. والآن صار لدي يقين من مشاعري تجاهك، وقد أكدها غيابك عني يوماً واحداً فأحسست كأن الحياة غابت عني.. ولعل هذا يفسر لك لماذا كنت أؤخرك في عملك فما كان ذلك إلا لكي أراك وتكوني إلى جواري أطول وقت ممكن.

غمغمت «مديحة» في ذهول وكل جزء في جسدها ينتفض:

مستحيل.. كأني أحلم.

قال «كمال» في إصرار وتوكيد:

بل هذه هي الحقيقة ولست أخجل من إعلانها.. ولعلك الآن تدركين ما الذي أتى بي هذه اللحظة.. لأنني أيضا لم أعد قادراً على أن تغيبي عن عيني لحظة واحدة.

أعطتها كلماته شجاعة مفاجئة.. أحست كأن كرامتها ردت إليها في لحظة خاطفة. تمنت لو أنه يظل يتحدث إلى ما لا نهاية.. أن يبقى إلى جوارها لا يغيب عن عينيها أبداً.. أن يواصل اعترافه بحبها.. أن يمسح عنها جراح وعذاب أسابيع

طويلة ماضية وهي تحسبه غافلاً عن دنياها يسبح في عبير بحارها.

ولكن ذلك كان أقرب إلى الحلم أو المستحيل.. كان الوضع قد تبدل تماماً وصار أكثر تعقيداً.. لم يعد ثمة مفر من إجابة قاسية مؤلمة فهمست تقول له:

أرجوك.. لن يفيد اعترافك بشيء ولن يغير من الوضع.. بل لعله يعقده.. فبعد كل ما حدث لم أعد أصلح للعمل سكرتيرة لك، ولن تستقيم العلاقة بيننا أبداً.

أومأ برأسه في هدوء موافقاً على ما قالته:

بكل تأكيد، كما أنني لم آت اليك لأسألك العودة إلى عملك السابق.

تطلعت إليه «مديحة» في دهشة وهي تسأله: لماذا جئت إذن؟

أجابها بابتسامة عريضة أضاءت وجهه وهو يتأمل ملامحها الرقيقة البريئة:

لقد جئت لطلب وحيد.. فهل تقبلين الزواج مني؟

كأنها تلقت لطمة.. انفجرت المفاجأة في وعيها.. لم تصدق أذنيها.. تشوش عقلها تماماً فقبضت على مسند

مقعدها تتشبث به كأنها تخشى من الانهيار لشدة ذهولها.

مرة أخرى كرر عبارته في رقة آسرة: «مديحة».. هل تقبلين الزواج مني؟

انطلقت زغرودة عالية أعادتها إلى عالم الواقع، وظهرت صاحبة «البنسيون» وهي تواصل إطلاق الزغاريد، وبترتها بغتة قائلة لـ«كمال»: وهل ستجد «مديحة» عريساً أفضل منك.. إنني بمثابة أمها وأعلن لك موافقتي ومباركتي أيضاً.

وأطلقت ضحكة خشنة قبل أن تواصل: والله منذ رأيتك تدخل «البنسيون» سائلاً عن «مديحة»، حتى عرفت أنك جئت تطلبها للزواج، والآن سأذهب لتجهيز الشربات.

وغابت المرأة ساحبة خلفها ظلها الثقيل ووجهها المليء بالندوب والشعيرات الخشنة النابتة أسفل فكها.

وأدارت «مديحة» وجهها نحو «كمال».. كانت حتى تلك اللحظة لا تصدق ما يدور حولها.. كأنها أحداث فيلم سينمائي يدور أمام عينيها ويستحيل أن تجري أحداثه على أرض الواقع.

وهمس «كمال» يقول في رقة: لم أسمع ردك يا «مديحة».

تحركت شفتاها بعد عناء.. أزاح الشلل قبضته عنها أخيراً.. همست بصوت يرتجف وعينين مفتوحتين عن آخرهما: أنت حقاً.. تطلبني للزواج؟

أمسك بأصابعها الرقيقة بين كفيه القويتين وأجابها بابتسامة عريضة: وما العجيب في ذلك؟

لم تحتمل قوة نظراته ولا لمسة كفيه، التهب وجهها بالدماء فسحبت أصابعها بسرعة من حضن كفيه، وغمغمت بوجه محتقن: ولكن.. هذا مستحيل.

تساءل في هدوء كأنه كان موقناً من اعتراضها:

ولماذا هو مستحيل.. هل السبب هو فارق ظروفنا الاجتماعية.. ولكن لا أحد منا يختار مولده أو قدره، وأنا كنت قبل سنوات لا أمتلك من حطام الدنيا شيئاً.. فأي عجب في أن أحبك وأختارك زوجة لي أنت بالذات دون نساء العالم كله، وقد لمست صدق مشاعرك عن قرب؟

انتفضت كأنما أصابتها حمى وهمست:

ولكن.. أنا..

قاطعها في رقة: لا تقولي شيئاً.. وفري عناء الحديث..

يكفي ما أراه من فرحة المفاجأة الطاغية فوق وجهك، فقد أعلنت موافقتك الصريحة.

كأنه سلبها حق الاعتراض أو الحديث فلم تنطق.. وتعلقت عيناها به وهو يلثم أصابعها.. شعرت كأن كل أفراح العالم قد سكنت قلبها تلك اللحظة.. كأن الدنيا تعوضها عن كل ما ضاع منها.. عن سعادتها المفقودة.. وساعات حرمان وآلام لا حصر لها.

كأن حبها لـ «كمال» قد تضاعف، وقد ظنت أن قلبها قد امتلأ به وفاض منذ زمن.. في تلك اللحظة شعرت كأنه صار عالمها كله.. حبيبها وفارس أحلامها وزوجها وأخاها وأباها..

همس يقول لها: ما رأيك.. أن يكون زواجنا ليلة الخميس القادمة؟

أومأت برأسها موافقة ودموع الفرح تغرق وجهها.

بدا عليه بعض التردد اليسير حسمه قائلاً:

ولكن هناك أمر أود أن استأذنك فيه.. فلدي ظروف خاصة

تمنع من إقامة حفل ودعوة الناس لحضور الزفاف.. ولذلك سنقيمه بيننا وحدنا.. أنا وأنت فقط.

لم تفهم ما يقصده فسألته:

ماذا تعني بذلك؟

قال في لهجة من اعتاد حسم الأمور سريعا:

أقصد أن يكون الزواج عرفيا.. لا يعلم به أحد سوانا.. وشاهدين سأحضرهما من موظفي الشركة.

شحب وجهها.. كأنها تلقت لطمة.. ارتجفت شفتاها.. همست في ذهول: ولماذا نخفي أمر زواجنا؟

بان بعض الحزن والأسى في عينيه، وأدار وجهه بعيداً وهو يقول بصوت متألم:

لن أكتم الأمر عليك وسأتركه لتقديرك وأنا أثق رجاحة تفكيرك. فإنني أرغب في التوسع في أعمال شركتي وأوشكت على توقيع بعض عقود المشاركة مع سيدة أعمال ثرية جداً، وهذه السيدة تخطط للزواج مني.. ولو علمت بأمر زواجنا لسحبت موافقتها ورأسمالها، ولتسببت في خسارة ضخمة لي.. وربما في انهيار شركتي.. وهو الأمر الذي يدعوني إلى

كتمان أمر زواجنا.. في الوقت الحالي على الأقل، إلى أن توقع هذه السيدة على أعمال المشاركة بعد أسابيع قليلة، وبعدها لن تستطيع التهديد بانسحابها من الشركة مهما كانت الأسباب.

وصمت «كمال» ووجهه منكس، لأول مرة تراه «مديحة» بمثل تلك الحال من الضيق والألم.. وشعرت أنها المتسببة في ذلك.. فأصابتها غصة وإحساس بالندم.

كانت أسبابه وجيهة.. ولا يمكن أن يقوم زواجها منه على أنقاض عمله وشركته.. وأدهشها أنها لم تعلم بأمر توسعات الشركة والعقبات المالية التي تواجه «كمال» بالرغم من كونها سكرتيرته الخاصة والمطلعة على كل أسرار عمله.

كانت حتى ساعات قليلة تتعذب وتتألم وهي تحسب نفسها بعيدة عن سماء هذا الرجل وهي تظن أنه يستحيل أن تدور في فلكه أبداً.. وها هي ذي تكتشف أنها كانت شمسه ونجومه كل هذا الوقت.. وأنه يدور في محيطها لأيام وشهور مضت.. ها هو يرجوها أن تكون شمس حياته التي لا تغرب عنه أبداً.. يستعطفها أن توافق على الزواج منه برغم ظروفه الخاصة.. فهل هي مستطيعة الرفض؟

أي جنون هذا.. هل يمكن أن يصدق لحظة واحدة أنها ترفضه مهما كانت شروط زواجه منها؟

هل تفقد سعادتها بعد أن قبضت عليها بأصابعها أخيراً.. وتسبب التعاسة لنفسها بقية حياتها.. ولذلك الحبيب الوفي الذي كان حضوره إليها أمراً أشبه بما يحدث في القصص الرومانسية الخيالية، حتى أنها لا تكاد تصدق ذلك، لولا جلوسه إلى جوارها وعطره الذي يخترق مسامها؟

وهمست تقول له في بعض الألم: إنني موافقة على كل ما تشترطه.. ولكن لا تدعني أشاهد هذه النظرة الحزينة في وجهك أبداً.

رفع «كمال» وجهه إليها وفوق شفتيه ابتسامة عريضة.. كأنه كان يتوقع الإجابة.

وأقبلت صاحبة «البنسيون» حاملة كؤوس الشربات وهي تطلق زغرودة عالية طويلة.

* * *

الحلم.. والكابوس

كان الأسبوع التالي أشبه بالحلم.. طار الاثنان إلى شواطئ «البحر الأحمر» في «الغردقة» وأقاما في إحدى قراها السياحية الفاخرة.

وضايق «مديحة» أن «كمال» احتجز لهما حجرتين منفصلتين، باعتبارهما رجل أعمال وسكرتيرته، ولكنه قال لها مفسراً: لا أريد للخبر أن ينتشر، فأنا رجل أعمال معروف، وشائعة زواجنا وإقامتنا في حجرة واحدة قد تنتشر بسرعة، وتصل إلى شخص بالذات نحاول أنا وأنت إخفاء هذا السر عنه قدر طاقتنا لبعض الوقت.

فأومأت برأسها موافقة وتبدد ضيقها في الحال.

كانت دائماً على استعداد لأن تصدق وتستوعب كل ما يقوله لها.

كان يستحيل عليها اعتراضه أو رفض ما يقوله..

أسلمت حياتها له.. وكان من المستحيل أن تناقشه في رغبة ما..

وأدهشها أن «كمال» كان معروفاً في القرية السياحية، وأن أغلب العاملين فيها كانوا يقابلونهما بابتسامة عريضة، وما أن يديرا ظهريهما، حتى يتصاعد الهمس بين موظفي القرية وهم يشيرون إليهما. كأنهم يشكون في أنها زوجته.

وفي رحلة العودة فاجأها «كمال» بقوله: لن نستطيع الإقامة في شقتي حتى لا تتناولنا ألسنة الجيران، فإنني لم أعلم أحداً بزواجنا، ولذلك سنضطر للإقامة في شقة مفروشة لبضعة أسابيع فقط، وقد أستأجرتها باسم مستعار لنفس السبب.

أحست «مديحة» بالضيق، ولكنها حاولت إخفاء مشاعرها، وأومأت برأسها في صمت، فليس عليها أن تشكو ما وافقت عليه من قبل.. فاستكانت إلى كتف زوجها وأراحت رأسها فوق ذراعه وأغمضت عينيها وهي تحلم بالهناء. يكفيها أنه إلى جوارها وأن قلبه لم يختر من نساء العالم غيرها.

وكانت الشقة المفروشة فاخرة تطل على «نيل القاهرة» في أحد الأبراج الكبيرة ويبدو المشهد من شرفتها رائعاً، دق له قلب «مديحة» سروراً، فهتفت لـ «كمال» بفرحة طفولية: لقد حلمت أن أسكن في شقة تطل على «النيل» منذ طفولتي، وأشعر الآن أن حلمي قد تحقق بفضلك.

وتوقفت غصة في حلقها عندما تذكرت أن إقامتها في الشقة مؤقتة وأنها مفروشة، فهمست تقول لـ «كمال»: ولكني واثقة على أي حال أن شقتك ستكون أفضل وأروع، حتى لو كانت لا تطل على «النيل»..

وتأملت عينيه مضيفة في همس: يكفيني أنها ستجمعنا معاً.. حتى آخر عمرنا.

وأدهشها أنه لم يرد بأي إجابة.. كان يبدو عليه الإرهاق من السفر، واستأذنها في الذهاب إلى الشركة للاطمئنان على سير أعماله.

ولم يعد إلا في المساء المتأخر، فتناول عشاءه ونام بعد دقائق قليلة وقد تركها وحدها جالسة في الشرفة العريضة تراقب «النيل» الساحر وهي تضم أحلامها إليها، وتشفق على حبيبها

من مشقة أعماله، وتتمنى لو أنها استطاعت أن تخفف أعباءه مهما لاقت من متاعب.

ولكن الأمر تكرر في الأيام التالية.. وانقضى أكثر من شهر وهي لا ترى «كمال» إلا لحظات خاطفة في الصباح أو الليل، فكان يغادر الشقة مبكراً ولا يعود قبل منتصف الليل ليأوي إلى فراشه مبكراً، وربما اعتذر هاتفياً عن عدم المجيء لاضطراره لقضاء السهرة مع بعض العملاء، والمبيت في شقته.

وتساءلت «مديحة» في قلق إن كان زوجها يعاني من مشكلة ما كانت تأخذه منها وتعتصر وقته إلى هذا الحد، وتبعده عنها، وعندما فاتحته في الأمر، أجابها في ضيق: وإذا افترضنا أنه ليست هناك مشكلة، فهل تريدين مني البقاء إلى جوارك ليل نهار وإهمال عملي، فهل يكون ثمن زواجي منك خسارتي للعمل؟

لطمتها العبارة وأحست بالندم لما قالته، وغمغمت في اعتذار: إنني آسفة.. لم أكن أقصد مضايقتك.

وصمتت لحظة قبل أن تسأله: هل وقعت عقود المشاركة مع تلك السيدة؟

أجابها وهو يغمض عينيه فوق الفراش: ليس بعد.. قد يستغرق بحث التفاصيل بيننا شهوراً فلا تتعجلي أي شيء.

وفي الأيام التالية، أحست بملل قاتل.. صارت تقضي يومها بلا عمل في الشقة العريضة المتسعة، وليس هناك ما يشغلها غير مشاهدة التليفزيون أو القراءة.. وعندما عاد «كمال» بعد غيبة ثلاثة أيام استقبلته في تسامح قائلة: يبدو أنه لم تعد هناك فرصة حقيقية لأراك إلا إذا عدت للعمل ثانية.

وأجابها دون اهتمام: كما تشائين إن كان هذا سيقلل من شكواك الدائمة.

فاجأتها الإجابة.. كانت تتوقع إعتذاره أو حتى ملاطفته لها بكلمات رقيقة تخفف ضيقها وألمها.. وضايقتها خشونته وعدم اهتمامه فقالت مقطبة: حسنا.. من الغد سأعود إلى وظيفتي كسكرتيرة لك.

ولكنه مط شفتيه اللتين تلاعبت فوقهما ظلال ابتسامة ساخرة وهو يقول لها:

لن يمكنك ذلك للأسف الشديد.. فقد عينت سكرتيرة

جديدة لي منذ عودتنا من «الغردقة»، أم ظننت أنني سأبقى بلا سكرتيرة في انتظار عودتك للعمل؟

فاجأتها الإجابة، همست تقول في صوت واهن: لم تخبرني بهذا الأمر؟

استدار نحوها، واجهها في حدة: وهل يفترض مني أن أخبرك بكل تفاصيل عملي وأقدم لك تقريراً بكل ما أفعله في يومي؟

أدهشتها حدته.. ولم تدر السبب في معاملته لها بمثل تلك الخشونة. لم تظن من قبل أبداً أن عينيه الجذابتين الجميلتين يمكن أن تطلقا مثل هذه النظرة الغاضبة المتأججة بالثورة والغضب.. وغمغمت: أنا آسفة.. لم أكن أقصد مضايقتك.

واصل «كمال»: يمكنك أن تعودي إلى عملك السابق في الحسابات.. ولن ينقص مرتبك عما كنت تتقاضينه وأنت سكرتيرتي.

أحست بعبارته كأنما لطمتها.. كأنها لسع سوط مزق كرامتها، غمغمت في ذهول: عن أي مرتب تتحدث وأنا زوجتك.

سدد أصبعه في وجهها وفي صوت محتد قال:

لا تنسي أنك أمام الآخرين.. موظفة لدي.. وتذكري شيئاً آخر لا يقل أهمية وهو ألا تجادليني كثيراً، فعندي من متاعب العمل ما يكفيني..

لم تنطق.. كان على حق.. فهذا ما ارتضته لنفسها منذ البداية.. فلاذت بالصمت والحيرة وهي لا تدري لماذا تحول زوجها إلى تلك الحدة والعنف في معاملته لها.

أين غابت رقته وذابت رومانسيته.. هل تغيرت مشاعره نحوها.. هل أحس بالندم، أم أن متاعب عمله وانشغاله به كانا يدفعانه لذلك دفعاً.

وعادت إلى العمل ثانية..

لم يكن عملها في الحسابات يتيح لها رؤيته كثيراً، ولكنه كان كفيلاً بتبديد ملل نصف يومها.. وأحست بفضول قاتل لترى سكرتيرته الجديدة.. كانت شابة بالغة الأناقة بارعة الجمال يبدو أنها تلقت تعليماً عالياً وتجيد أكثر من لغة، وسألتها في صوت منغم دون أن تعرفها: هل تريدين شيئاً؟

فغمغمت «مديحة» بوجه شاحب وهي تنسحب من المكان: لا شيء.

وقابلتها «كريمة» زميلتها السابقة في الحسابات بدهشة قائلة: كنت أظن أنك تركت العمل في الشركة بأكملها بعد استقالتك، فما الذي عاد بك إلى الحسابات ثانية؟

ارتبكت «مديحة»، كانت في حاجة إلى عذر مقبول، ولم تكن تجيد الكذب فهمست في صوت شاحب: لقد أرهقني العمل كسكرتيرة لـ «كمال بك» وتأخري حتى العاشرة والحادية عشرة مساء، فاستقلت، وبعدها عانيت من الملل فرجوته إعادتي للعمل، فوافق على عودتي لقسم الحسابات مرة أخرى.

تأملتها «كريمة» بعينين متفحصتين لحظة قبل أن تقول: هذا عجيب.. إنه نفس ما حدث لي تقريباً.

تشاغلت «مديحة» بالأوراق والدفاتر الحسابية أمامها، كأنها تقطع الطريق على «كريمة» لكي لا تلقي عليها مزيداً من أسئلتها الفضولية، وحتى لا تتورط في أكاذيب أخرى.

وشغلها العمل لأسابيع متتالية.. صارت لا ترى «كمال» أكثر من يوم أو اثنين كل أسبوع، يأتي إلى الشقة المفروشة

ليقضي الليل، ثم يغادرها في الصباح المبكر بكلمات وداع قليلة باردة، وهمست «مديحة» لنفسها: إنه يعاني من متاعب، وربما مشاكل مادية في عمله وعليَّ ألا أضايقه بالإلحاح وأن أتحمله قدر طاقتي فلولا حبه لي ما تزوجني أبداً.. ويكفيني أنني موقنة من حبه لي.

وعادت دوامة العمل تهرسها برحاها ولا تترك لها فرصة للتفكير والشكوى.

ولكن قبل انصرافها من عملها ذات يوم أحست بدوار شديد وتراقصت المرئيات أمام عينيها في مكتبها وأوشكت أن تنهار على الأرض، لولا أن هرعت إليها «كريمة»، وأسندتها بيديها وأجلستها فوق أقرب مقعد متسائلة بقلق: «مديحة»: ماذا بك؟ عضت «مديحة» شفتها بقسوة.. لم تكن في حاجة لاستشارة طبيب للتأكد من سر ما يحدث لها.

ولكنه لم يعد سراً.. ولن تستطيع كتمانه أكثر من ذلك، فستفضحه الشواهد والعلامات، فغمغمت لـ«كريمة» وهي تشعر بغثيان قوي: إنني حامل.

رددت «كريمة» في ذهول: حامل.. ولكنك لم..

قاطعتها «مديحة»: بل أنا متزوجة منذ شهور.

ارتفع حاجبا «كريمة» في ذهول للمفاجأة وقالت:

متزوجة.. ممن؟

لم تكن هناك وسيلة للمراوغة والإنكار.. صارت «كريمة» صديقة لها منذ عودتها للعمل ثانية وتقاربتا كأختين شقيقتين.. وهي كانت في حاجة إلى مشورة صديق مخلص فهمست تقول لها: هل تعدينني أن تخفي السر؟

أي سر؟

عديني أولاً..

أعدك.

حانت لحظة الاعتراف.. وأحست «مديحة» كأنها تخفف من بعض حملها، فهمست تقول: لقد تزوجت منذ شهور سراً.. من «كمال الشريف».

شهقت «كريمة» في فزع، وتراجعت للخلف في ذهول قائلة: ماذا فعلت؟

راقبت «مديحة» صديقتها في دهشة، وغمغمت متسائلة في حيرة:

وأي عجيب في ذلك؟

ارتجفت اطراف «كريمة» وصرخت في لوعة:

أنت تزوجت «كمال بك».. لماذا أيتها التعسة.. لماذا.. لماذا..؟

اندهشت «مديحة» كأن تساؤل صديقتها مثير للعجب والحيرة.. وكان استنكارها ولومها أعجب ما في الأمر..

تمالكت نفسها وغادرت مقعدها مقتربة من «كريمة»، قبضت بأصابعها على كتفيها وهزتها في عنف قائلة: ماذا هناك يا «كريمة».. أخبريني بسر دهشتك العجيبة، فبدلا من أن يسعدك ما أخبرتك به، أراك تستنكرينه بشدة، فماذا تخفين عني؟

تجاهلت «كريمة» فيض التساؤلات، وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة مريرة إلى أقصى حد وهي تتساءل بدورها: أخبريني أيتها التعسة.. هل قضيتما شهر العسل في تلك القرية السياحية بـ «الغردقة» دون إعلان زواجكما حتى لموظفيها، ولعلك لاحظت همساتهم الساخرة، وبعدها عاد بك «كمال» إلى تلك الشقة المفروشة على «النيل»، فصرت لا ترينه إلا يوما أو اثنين كل أسبوع، واستحال عليك العودة إلى

عملك الأول كسكرتيرة له بعد أن عيَّن أخرى، ولهذا عدت إلى قسم الحسابات ثانية؟

زلزلت المفاجأة «مديحة».. وكأن صديقتها كانت ترى بعينيها كل ما جرى لها، فلهثت أنفاسها وهي تسألها في ذهول:

كيف عرفت ذلك كله.. من أخبرك به؟

ولكن «كريمة» تجاهلت السؤال، وواصلت في سخرية مريرة:

ولا بد أن حجة «كمال بك» في زواجه منك سراً هو تلك الشريكة الثرية التي تخطط للزواج منه، وستنسحب حتماً إن علمت بأمر زواجه منك.

لم تعد «مديحة» قادرة على كتمان ثورتها أكثر من ذلك، فصرخت في صديقتها:

من أخبرك بذلك كله: انطقي؟

اتسعت عينا «كريمة» فصارتا بلون الدماء وهي تقول:

لم يخبرني أحد أيتها التعسة.. لأنني جربت كل ذلك بنفسي!

ذاهلة تساءلت «مديحة»:

أنت؟

انهارت «كريمة» فوق أقرب مقعد وهي تخفي وجهها بكفيها قائلة بانتحاب:

كنت زوجته الخامسة.. خامس سكرتيرة يتزوجها سراً ثم يطلقها بعد إحساسه بالملل منها بعد شهور قليلة ويعيدها من حيث جاءت.. أتدرين لماذا تركت العمل كسكرتيرة له.. لأنه تزوجني وبعدها أعادني إلى قسم الحسابات مرة أخرى.. كما فعل معك تماماً.. وكما حدث لأربع أخريات قبلي ذهبن بلا رجعة بعد استقالتهن ولا أحد يدري ماذا جرى لهن.. وجميعنا كنا بلا أهل، أو من أسر متواضعة تخشى من الفضيحة والعار، ولن يجرؤ أفرادها على مقاضاة «كمال» أو الوقوف في المحكمة ضده لإثبات ذلك الزواج والمطالبة بالحقوق الشرعية، فهو بارع في اختيار نوعية ضحاياه ممن يضمن ألا يسببوا مشاكل له بعد الطلاق.

صرخت «مديحة» في جنون: مستحيل.. لا.. أنت كاذبة.

رفعت «كريمة» كفيها على وجهها.. كانت عيناها غارقتين في الدموع، وقالت بصوت يقطر حسرة ومرارة:

إن في استطاعتي أن أثبت لك كل كلمة أقولها.. فليست تلك الشريكة الثرية إلا وهماً وخداعاً.. ولم يكن موظفو القرية السياحية يتهامسون عليكما إلا للسخرية من ضحايا «كمال بك» من زوجاته السرّيات.. وحتى تلك الشقة المفروشة لن يتركك تنعمين بها طويلاً، وسيلقي عليك يمين الطلاق ويطردك منها شر طردة، وستكونين حسنة الحظ لو أنه تركك في عملك ولم يطردك منه كما فعل معي، مقابل ألا أتفوه بكلمة عما حدث بيننا. ووقتها لن يمكنك إثبات زواجك منه أبداً، لأن شاهديه لن يجرؤا على الشهادة لصالحك أبداً وإلا فقدا عملهما لديه.. والمكافآت الكبيرة التي يمنحهما إياها.. وأسوأ ما في الامر انك صرت حاملا منه.. من هذا الذئب المتوحش الذي لا قلب له أو ضمير..

شعرت «مديحة» كأن قنبلة انفجرت في رأسها.. كأن عقلها تفتت إلى ألف قطعة.. كأن الجنون ذاته أطبق عليها بمخالب لا ترحم.. ولكنها تشبثت بأمل أخير، فصرخت في «كريمة» كالمجنونة:

إخرسي.. أنت كاذبة.. مستحيل أن يفعل «كمال» كل

ذلك.. إنني أعرفه جيداً، فقد اختبرته بعض الوقت.. في عملي كسكرتيرة له، وكان مثال الأخلاق العالية التي لا تشوبها شائبة.

قالت «كريمة» في أسى ومرارة:

هذا هو أسلوبه.. الرقة التي تسيل أدبا وأخلاقا.. إنه لا يهاجم مباشرة، بل يأسر الفتاة التي يلقي عليها شباكه، بأدبه الجم ووسامته، فيصير فارس أحلامها، حتى أنها تتمنى ولو في أحلامها الزواج منه، فهو يفضل أن تأتي إليه الضحية ساعية بقدميها، عن أن يبذل جهداً في نسج شباكه حولها، لكي يضمن أنه عندما يطلب يدها للزواج باسم الحب يجد كل السبل ممهدة أمامه، وعروس المستقبل الغرقة في الحب توافق على شروط الزواج في السر وهي تحسب نفسها قد اقتنصت زوجاً لا مثيل له.. وهذا الثعلب لا شك قد مارس معك اللعبة نفسها.. ولن يمنعه شيء من أن يمارسها على سكرتيرته الجديدة، وعلى أي سكرتيرة أخرى تعمل لديه دون شفقة أو رحمة.

أخفت «مديحة» وجهها بكفيها، وانفجرت باكية في توسل لصديقتها أن تصمت.

لم تكن « كريمة » في حاجة إلى ذلك الرجاء لتصمت..

ارتعدت شفتاها واكتسى وجهها بتعبير قاتل من الألم.. اقتربت من « مديحة ».. احتضنتها ودموعها تسيل من عينيها ألماً.. همست تقول لها: لو أنك اخبرتني بالأمر قبل وقوعه لربما أمكنني نصحك وإنقاذك، ولكن أحداً لم يخبرني أيضا أو يقدم لي أي نصيحة كأن قدرنا أن نصبح ضحايا لهذا الوحش الذي لا قلب له.. وربما لو أخبرك أحد أن هذه الشركة كانت ملكاً لزوجته الأولى، التي خدعها بوسامته ثم استولى عليها منها، وطلقها بعدها، فماتت المسكينة من شدة الحسرة والندم، ولكن المعلومات لا تأتي للانسان في وقتها الصحيح أبدا، إلا بعد أن يكون قد دفع ثمنا غاليا لجهله بها.

أحست « مديحة » أنها تسقط من حالق.. كأن الأرض تبتلعها في جوفها.. دوامة تلفها في إعصار مخيف يعتصرها إلى آخر قطرة.

ولم تعد تحتمل سماع المزيد، ولا حتى بقاءها في نفس المكان، فاختطفت حقيبتها واندفعت إلى الشقة المفروشة.

ورفعت سماعة الهاتف وأدارت رقم هاتف « كمال » الخاص

في مكتبه.. وعندما جاءها صوته من الطرف الآخر، متسائلا في ضجر قالت له في صوت طعين: «كمال».. أريدك فوراً.. هناك أمر لا يحتمل التأجيل.

وأعادت السماعة مكانها ويدها ترتجف دون أن تضيف كلمة واحدة.

لم يكن هناك مفر من المواجهة..

تلك المواجهة التي ستتوقف عليها حياتها كلها.. وحياة ابنها الذي لم ير النور بعد. كان عليها ألا تضعف، فلديها إثبات وحيد على الأقل بأن هذا الرجل هو زوجها ووالد جنينها.. ولن يمكنه خداعها كالأخريات أبداً.

واتجهت إلى حجرة النوم وامتدت أصابعها بحثا عن ورقة الزواج العريضة.

ولكن الورقة لم تكن في مكانها.

ولم تكن في حاجة لمن يخبرها، عمن استولى عليها.. كان الأمر أشبه بالكابوس المخيف.. فانهارت فوق أقرب مقعد وهي تشعر أن الحياة تغادرها.

* * *

المواجهة

اندفع «كمال» غاضباً إلى داخل الشقة، أغلق بابها في عنف واستدار إلى «مديحة» قائلاً: ما الأمر المهم الذي استدعيتني لأجله وجعلتني أترك عملي وأهرع إليك.. هيا أخبريني؛ فقد مللت من رقتك المبالغ فيها، وبراءتك المصطنعة.

حدقت «مديحة» في «كمال» ذاهلة، كأنها ترفض التصديق أنه قادر على التفوه بمثل تلك الكلمات. كانت تدرك أنها بلا سلاح في مواجهة وحش.. ولم تدر أي طريق يمكن أن يقودها إلى قلبه، وإلى البقية من مشاعره الإنسانية، فهمست تقول في ذلة: «كمال».. إنني حامل.

كانت عبارتها مفاجأة.. أشبه بالصدمة بالنسبة له، فغمغم في استنكار قائلاً:

ماذا تقولين؟

رددت وهي تشد من أزر نفسها:

كما سمعت.. إنني حامل.

صرخ فيها في جنون:

هل جننت.. لقد اتفقنا أن يبقى الأمر سراً بيننا.. فكيف تفعلين ذلك؟

واجهته دون دمعة واحدة قائلة:

إنها إرادة الله.. وكنت أظن أنك ستسعد بذلك، لا أن تغضب وتثور إلى هذا الحد.. أم أن تلك الشريكة الثرية ستمنعك من قبول هذا الطفل أيضا وإعلان أبوتك له؟

ضاقت عيناه.. بدت فيهما ظلال شك، كأنما أدهشه أنها سددت عبارتها إلى قلب كذبته، فقال في صوت يفيض شكًّا:

ماذا تقصدين.. إن حديثك به تلميح لا أرتاح له.. فلماذ لا تختصرين تلك المناورة وتخبرينني بما تريدين؟

واجهته في تحد دون أن تخشى عينيه الرماديتين:

أين أخفيت ورقة زواجنا العرفية؟

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه وهو يقول:

إذن فقد بحثت عنها.. لقد وضح الأمر لي الآن فقط.

وأطلق ضحكة عالية بترها بغتة، وواجهها في قسوة بعينين يتطاير منهما الشرر قائلاً: إذن فقد رحت تبحثين عن سلاح تشرعينه في وجهي.. فأخبريني، من همس في أذنيك بأسراري.. هل هي «كريمة».. إنها هي دون شك، فقد جاءتني الأخبار أنكما صرتما صديقتين، ولعلها من نصحتك بالحمل لكي تربطيني بقيدك وابنك إلى الأبد، وكان من الخطأ أن أترككما تعملان في مكان واحد.

ـ لست أطلب منك شيئاً بعد الأن.. فكلماتك تفصح بالحقيقة التي أخفيتها كل هذه الشهور.

ولا شك أن طلاقي منك بات يسعدني أكثر من أي شيء آخر، فلا تقلق من هذا الأمر.

زاد الشك في عينيه وهو يسألها:

ماذا تطلبين إذن؟

واجهته في إرادة وتصميم:

أن تعترف بهذا الطفل.

انتفض كمن لدغته عقرب وصاح بها في ثورة غضب:

ماذا.. هل جننت.. إنه خطؤك وعليك أن تتحمليه وحدك.

تساءلت في ذهول:

هل ستنكر أبوتك لهذا الطفل؟

أجابها ساخراً: وهل تستطيعين إثبات نسبه لي.. فالشاهدان على زواجنا العرفي سينكران أمام أي محكمة، وليست لديك حتى ورقة الزواج العرفية.. وهذه الشقة استأجرتها باسم وهمي.. وعندما كنا في «الغردقة» حجزت لنا حجرتين منفصلتين باعتبارك سكرتيرتي.. وهكذا ترين أنك لن تجدي دليلاً واحداً يمكن أن تستندي إليه، إذا ما فكرت في مقاضاتي أمام المحكمة، أو نسب هذا الطفل لي.

وعلا صوته وهو يصيح فيها مهدداً كوحش كاسر: والآن.. فإنني أمهلك يوما واحداً لتغادري هذه الشقة وحياتي إلى الأبد.

تراجعت «مديحة» للخلف.. أطبق الذهول على وجهها وغمغمت وهي توشك أن تتهاوى: لا .. مستحيل أن تفعل ذلك بي وبابنك وترفض الاعتراف به حقاً.

أجابها في صوت بارد قاسٍ:

ليس لي أبناء.

هزت رأسها في ذهول قائلة: لن يكون ذلك هو ثمن حبي لك وثقتي بك وتصديقي لكل كلمة نطقت بها.

أجابها في سخرية كحد السيف:

ما أكثر الأغبياء والبلهاء الذين يسقطون باسم الحب، ولكني لست منهم أبداً، وأنت قد عشت في سعادة ورغد بعض الوقت مقابل زواجنا القصير، وهكذا حصل كل منا على ما كان يبتغيه.. وليس لك أن تشكي أو تطالبي بالمزيد.

صرخت «مديحة» في جنون: أيها الوغد القاسي القلب.. أيها الجبان الذي لا ضمير له، كيف انخدعت بك إلى هذا الحد؟

وهوى «كمال» بكفه فوق صدغها، فترنحت «مديحة» وانهارت فوق أقرب مقعد، وقد تركت أصابعه علامات حمراء دامية فوق وجنتها.

وأشار «كمال» بإصبعه في وجهها كما لو كان يصوب إليها طلقة رصاص قائلاً: سأمهلك حتى الغد، لا.. بل الليلة فإن

عدت آخر الليل ووجدتك في هذا المكان فستكونين الجانية على نفسك وربما أتهمك بالاختلاس من الشركة أو بأي تهمة أخرى.

والآن اذهبي.. فأنت طالق..

وغادر «كمال» المكان وأغلق الباب خلفه في عنف.

أخفت «مديحة» وجهها بكفيها وهي تنتحب في بكاء مر.. وكلماته القاسية لا تزال ترن في أذنيها وتنهش قلبها.. ظنته سيصبح أباها وأمها وأخاها وحبيبها.

فلم يكن غير جلادها ومن هوى بسكين خيانته وغدره في قلبها.

لم تكن في حاجة لتوكيد أنه قادر على تنفيذ تهديده وأنه ربما يلقي بها في السجن.. دون أن تجد من تلوذ أو تحتمي به.

أخذت كلماته تتردد في أذنيها، كأن الحوائط تعيد صداها في قسوة ودون رحمة.. وكان ظله لا يزال باقياً في المكان يرمقها دون شفقة في سخرية وقسوة لا مزيد عليهما..

وأوشكت على الغثيان وهي لا تزال تشتم بقايا رائحة عطره التي أخذت تدفعها للقيء بشدة.

لم يعد هناك ما يربطها به حقاً.. تقطعت كل الأسباب..
بعدما كشر الذئب عن أنيابه.. ونهش أقرب الأقرباء إليه دون رحمة.

كان ثمن التجربة فادحاً.. جنين في أحشائها.. وفضيحة تنتظرها في كل مكان.

ولمَ يكن لها أحد ليمد يد العون إليها ويغيثها في محنتها..

كانت بلا أمل.. بلا قريب.. بلا صديق..

وحيدة يائسة بلا أمل.. تتشبث بأطراف الحياة.. ابن سيولد يتيماً ووالده حي، تجلله الفضيحة والعار، دون ذنب.

وفي سكون غادرت الشقة تاركة بداخلها كل هداياه وحتى الملابس القليلة التي ابتاعها لها.. وودت لو انتزعت جلدها من فوق بدنها، حتى لا يذكرها يوما ما أنه مسها بأصابعه.

* * *

وقادتها قدماها إلى «البنسيون» مرة أخرى.. كأنه قدرها الذي لا مهرب لها منه.

وعندما أبدت صاحبته دهشتها من عودتها مرة أخرى، أجابتها «مديحة» هامسة: لقد طلقت أنا و«كمال».

فغمغمت المرأة في غضب: كان لا بد لمثله أن يطلقك.. فأمثالك لا يعرفن كيف يصنَّ النعمة، ولعلك تمردت عليه أو بالغت في طلباتك فتخلص منك.

ـ أرجوك.. لقد نالني من الألم ما فيه الكفاية، إنني بحاجة إلى حجرتي مرة أخرى.

ـ آسفة.. لا يمكنني ذلك.

ـ لماذا.. هل شغلتها فتاة أخرى؟

ـ لا.. ولكنني لا أرتاح لسكنى المطلقات لدي.. فأنا أخشى على سمعة «البنسيون».

كانت الكلمات أشبه بالطعنة المباغتة.. فنكست «مديحة» رأسها وغادرت المكان وهي تجرجر ساقيها وكرامتها.

لم يكن ما معها من نقود يسمح لها باستئجار شقة مفروشة أو حجرة في فندق.. كانت جنيهاتها القليلة بالكاد تكفي طعامها لأيام قليلة.

سارت بلا هدى وقد أسدل الليل أستاره منذ ساعات..
واشتد البرد وتلبدت صفحة السماء بغيوم منذرة بمطر ثقيل لشتاء مبكر.

وأحست «مديحة» بوهن لا يحتمل وبرد قارس يتسلل من ملابسها الخفيفة.. كانت في حاجة لأن تغمض عينيها فقط وتشعر بقليل من الدفء. وشاهدت أضواء مسجد قريب.. يعلو أذان الفجر من مئذنته عاليا مبدداً حلكة الليل وظلامه..

كان صوت المؤذن أشبه بصلاة ملاك تتفتح له أبواب السماء.. ورفعت «مديحة» عينيها إلى السماء وأغرقتها الدموع وهي تقول: يا رب.. استرني من العار.. فليس لي في العالم غيرك.. لا تحكم علي بالفضيحة لخطأ لم أرتكبه.

وفي اللحظة نفسها سطع البرق في السماء مبدداً حلكة ظلامها.. كأنه سيف العدالة الذي لا ينام.. وكأنه يؤكد لها أن عدالة السماء ساهرة لا تنام أبداً.

وانهمرت الأمطار كالسيل فوق «مديحة» فأغرقتها..
وأحست بالبرد القارس يفتت عظامها ولم يكن هناك مكان تلجأ إليه أو تلوذ به.. وأوشكت على السقوط على الأرض

ولكن أضواء المسجد راحت تشدها بقوة لا تقاوم.. قوة أكبر من كل البشر فانقادت لها.. ووجدت نفسها تتحرك صوبه كأنها تستمد الإرادة والعزيمة من مصدر مجهول حتى غمرتها أضواء المسجد فأحست بشيء من الراحة.. وغمر قلبها شعور بالسكينة.. وخارت قواها.. وشاهدت على البعد شيخاً جليلاً في ملابس بيضاء يقترب منها ولحيته الناصعة البياض تزيده بهاء ووقاراً..

ورفعت «مديحة» يدها كأنها تلوذ به.. ولكن قوتها خانتها فتهاوت في دائرة الأضواء، أمام باب المسجد المفتوح، غارقة في دموع المطر.

* * *

«الشيخ عمّار»

عندما فتحت «مديحة» عينيها، شاهدت نفسها راقدة في حجرة وثيرة، وثمة امرأة عجوز جالسة إلى جوارها وهي تغالب نومها وضوء الصباح ينفذ عبر النافذة الزجاجية المغلقة.

تنبهت تماما، واعتدلت في فراشها متسائلة أين هي.

وولج الحجرة الشيخ الوقور ذو اللحية البيضاء.. وتذكرته «مديحة» على الفور، كان يبدو أكثر مهابة ووقاراً، وأضاءت وجهه ابتسامة بشوش وهو يقول: حمداً لله أنك استعدت وعيك، وقد طمأنني الطبيب وقال إنك مصابة بالبرد فقط.. أما الجنين فهو في حالة جيدة.

شحب وجه «مديحة» واندفعت الأحداث المؤلمة إلى عقلها توشك أن تفجر رأسها، وتساقطت دموعها رغما عنها، فقال الشيخ الجليل: لا داعي للبكاء يا ابنتي.. فهذه الدنيا فانية لا

تستحق أن نزرف دموعنا عليها.. والحمد لله أنني رأيتك في الوقت المناسب وانت تفقدين وعيك فنقلتك مع أهل الخير الى منزلي. والآن اخبريني بقصتك يا ابنتي وما دفعك لمغادرة بيتك في هذا الوقت المتأخر جداً وأصدقيني القول، فلعل الحل يكون بمشيئة الله على يدي.

تعثرت كلمات «مديحة» وهي تغالب أحزانها.. وراحت تحكي للشيخ كل ما مر بها من أحداث وهو يومئ برأسه في إنصات وعلامات الحزن تكسو وجهه.. وأنهت «مديحة» حديثها باكية وهي تقول: والآن لم يعد لي مأوى أو عمل ولا مال.. صرت مثل قشة تتقاذفها رياح عاصفة.. ولا أحد في العالم يهتم بي أو يشفق على ما جرى لي.

هز الشيخ رأسه وهو يعد على مسبحته قائلا: لا تقنطي من رحمة الله يا ابنتي.. فإن الله الذي خلق الطير والحيوان، يسر له الطعام والشراب، وأجرى له الأنهار وأنبت المزروعات والأشجار، فكيف الحال بالإنسان، وهل ينساه الله مهما تعاظمت وتضاعفت مصاعبه.

ونهض وهو يقول: سوف أرى ما يمكن عمله يا ابنتي..

والآن خذي قسطاً من الراحة والنوم أنت في حاجة إليهما..
وفي المساء نرى ما يكون.

وغادر الشيخ الحجرة.. وتنبهت العجوز من غفوتها، وعندما وقع بصرها على «مديحة» متيقظة صاحت بفرحة في صوت حنون طيب: حمداً لله أنك أفقت أخيراً يا ابنتي.. إنني أراك في أحسن حال، ولحسن حظك أن عثر عليك «الشيخ عمّار» فأحضرك إلى منزله..

تساءلت «مديحة»: هل أنت والدته؟

أجابتها العجوز في رقة:

لا يا ابنتي.. بل كنت مربيته وعندما أعجزتني السنون عن العمل، أصر على أن أقيم في منزله معززة مكرمة، وأن أعامل معاملة والدته، فهو رجل تقي صالح، انقطع لعبادة الله، وابتنى ذلك المسجد الذي تهاويت أمامه، وبرغم ثرائه البالغ، وما يمتلكه من أموال ومصانع نسيج، فإن ذلك لا يشغله عن عمل الخير أبداً.

وربتت فوق وجنة «مديحة» متسائلة بحنان: هل آتيك ببعض الطعام والحساء الساخن؟

أومأت «مديحة» برأسها موافقة.. كانت تشعر بجوع شديد، ولم تشعر بالخجل كأنها في بيتها، وتلك العجوز هي أمها الحنون.

كان الطعام لذيذاً.. وغرقت «مديحة» بعده في نوم عميق..

وعندما استيقظت ثانية كانت الشمس تميل للغروب..

وأذن المؤذن لصلاة العشاء..

وبعد قليل شاهدت «الشيخ عمّار» يخطو إلى داخل حجرتها بعد أن طرق بابها وتقدم منها بوجه لا يفصح عن شيء، ثم غمغم قائلاً في أسف: قد ذهبت بنفسي إلى «كمال الشريف».

ارتجفت «مديحة».. كان الأمر مباغتاً لها فلم تقدر على النطق، وأكمل الشيخ في صوت متألم: لقد أنكر كل ما قلته، ولم يعترف بزواجه منك أو بالطفل الذي تحملينه في أحشائك.

انفجرت «مديحة» في البكاء.. وقال الشيخ في صوت رقيق: ولكني تأكدت من الحقيقة بوسائلي الخاصة، وأنك صدقت في كل كلمة قلتها.

مسحت دموعها وهي تقول حزينة:

وهل شككت في صدق ما أخبرتك به، فذهبت للتأكد؟

فرمقها في حنان أبوي مجيباً:

لقد اختلط الخير بالشر يا ابنتي في العالم، وحق على المؤمن أن يتبين نور الفجر من الظلام.. كما أنني ظننت أن باستطاعتي إقناع هذا الشاب بإصلاح خطئه، ولكن الله لم يأذن بعد، فهو أيضاً ضحية وإن كان ذلك لا يبرر فعلته.

رددت «مديحة» في ذهول: «كمال الشريف» ضحية؟

أومأ الشيخ برأسه قائلاً:

نعم يا ابنتي، فقد أحب في بداية حياته فتاة حبا جارفاً، وكانت تعمل سكرتيرة في إحدى الشركات، ولكنها غدرت به وتزوجت من صاحب الشركة الكهل بسبب ماله.. ولهذا آلى على نفسه بالانتقام من كل سكرتيرة يوقعها سوء الحظ في طريقه..

غمغمت «مديحة» في مرارة وانكسار:

وماذا سأفعل.. إن الموت أهون عندي من الفضيحة.

لا يا ابنتي.. استعيذي بالله من الشيطان الرجيم.

سيلاحقني العار طوال حياتي.

أنت لم تخطئي أو ترتكبي إثماً.. وإن كانت قلة تبصرك هي ما أوقعت بك في هذا الموقف.

اهتز جسد «مديحة» في نحيب قائلة:

سيظل ابني موصوماً بالعار طوال حياته دون ذنب جناه.

تعلق بصر الشيخ بـ «مديحة» في إشفاق قائلاً:

لا ذنب لابنك في نكران والده لأبوته.. ولعل الله قد منحني القوة لأغادر فراشي ومسكني لصلاة الفجر في جماعة، برغم البرد القارس والمطر وما أشعر به من آلام «الروماتيزم».. فقط لكي أعثر عليك وأمد لك يد العون.

أخفت وجهها بين كفيها كأنها تهرب من العالم قائلة:

لقد فعلت كل ما في استطاعتك أيها الشيخ الطيب.. ولم يعد بإمكانك فعل المزيد.

بدا على «الشيخ عمّار» كأنه يحسم أمراً تردد فيه طويلاً قبل أن يقول:

لعلي قادر على فعل صنيع أخير.. فإنني رجل وحيد.. لا زوجة لي ولا ابن.. وليس هناك من يرثني أو يبكيني..

فهل تقبلين أن أكون أباً لابنك؟

بوغتت «مديحة» بما سمعته، فهتفت بلا وعي:

ماذا؟

واجهها «الشيخ عمّار» في رقة ووجهه يفيض وداعة وتقوى:

لعل مشكلتك كلها تجد الحل إذا ما تزوجنا.. فتصيرين زوجة أمام الناس جميعاً.. ويكون لابنك أب، فلا يلحق به أو بك عار أو أذى.

قالت ذاهلة:

وما ذنبك أنت لتتحمّل نتيجة أخطاء غيرك؟

تهدج صوت «الشيخ عمّار» وأوشكت الدموع أن تطفر من عينيه وهو يقول:

ولماذا تظنين أنني أتحمل الأوزار بذلك.. لعلني أكون في حاجة إلى هذا الابن ليؤانسني في وحدتي ويملأ شيخوختي بالبهجة ويمنحني ما حرمني منه القدر.. أما أنت فستعيشين في بيتي مثل ابنتي.. وستكون لك منزلة الابنة أو الأخت فتكونين وابنك البلسم الذي يداوي جراح وحدتي وآلام

شيخوختي.. وبهذا فقط أؤمن أن الله العلي العظيم قادك إلي كما قادني إليك.. ليمنح كل منا الآخر السلوى والعزاء والراحة.. فأعوضك عن أبيك الراحل وتكونين عوضا لي عن كل ما فقدته في حياتي دون عزاء.. فهل تقبلين ما أعرضه عليك يا ابنتي؟

ارتعش صوت «مديحة» وهي تقول:

وهل أستطيع الرفض أيها الرجل النبيل.. وأنت تقدم لي طوق النجاة الوحيد للخلاص.. لقد أرسلك الله حقا لي للخلاص من عذابي.

أشرق وجه «الشيخ عمّار» بنور طاغ.. وبدا كأنه يولد من جديد، وكان حياته بدأت منذ تلك اللحظة. وغادر الحجرة في فرحة قائلاً: سأنتظر مرور مدة العدة بفارغ صبري لنعقد قراننا أما الآن فسأذهب لأشتري للمولود كل ما يحتاج له من ملابس ولعب.. ليجد كل شيء مهيأ عند مجيئه..

وغاب الشيخ من عيني «مديحة».. ولكن طيفه بقي في الحجرة يبعث بالراحة والسكينة إلى قلبها.

وأقبلت المربية العجوز ووجهها يشع بفرحة، وغمغمت

لـ « مديحة » : منذ سنين طويلة لم أشاهد « الشيخ عمّار » فرحاً بمثل هذه الطريقة . وكأنه استرد ابنته مرة أخرى وطفلها .

قالت « مديحة » في دهشة :

أتقولين ابنته وطفلها . . كنت أظنه لم يتزوج أبداً؟

قالت العجوز في حزن :

بل كان زوجا ماتت زوجته منذ سنوات بعيدة تاركة له طفلة وحيدة تركها في رعايتي حتى صارت عروساً جميلة، وهو منشغل عنها بنزواته وملذاته وسهره ثم أرغمها على الزواج من صديق له، لم تكن ابنته راغبة فيه، وفي يوم ولادتها ماتت هي وطفلها . . فبكاهما « الشيخ عمّار » طويلا . . سنوات وهو يبكيهما وقد أصابه ندم لا ينقطع، وبعدها تغيرت أحواله تماماً، فترك حياة اللهو والملذات وتقرب إلى الله وابتنى ذلك المسجد، وانقطع لفعل الخير . . فهل تدركين الآن يا ابنتي سر سعادته . .

أوشكت « مديحة » على البكاء لما سمعته . . وأغمضت عينيها على دموعها الساخنة . . نفذت كلمات العجوز إلى قلبها لتسكب فيه مزيداً من السكينة والطمأنينة والإيمان بحكمة السماء ورحمتها .

المرأة الذهبية

عقدت «مديحة» شعرها برباط أسود.. وألقت نظرة على «تايورها» الرمادي الداكن الأنيق. كان وجهها خالياً من المساحيق يضفي عليها هدوءاً وجاذبية.

وأقبل طفلها من الخلف وهو يمتطي دراجة يقودها بسرعة، أوشك أن يصطدم بمرآة الدولاب العريضة، فصرخت «مديحة» في لهفة وذعر واندفعت نحوه، ولكنه توقف أمام المرآة العريضة بالضبط، وهو يطلق ضحكة عالية مستمتعة..

التقطت «مديحة» أنفاسها، وانحنت على طفلها ذي السنوات الثلاث قائلة: أيها الماكر.. لا أدري من أين تأتي بهذه الحيل الشقية وأين تعلمتها؟

أشار الطفل إلى صورة كبيرة معلقة على الحائط، يزينها

شريط أسود وقال ضاحكاً: إنني آتي بكل هذه الأشياء من بابا جدو «عمّار»!

ألقت «مديحة» نظرة إلى الصورة، وهمست قائلة: ليرحمه الله.

تساءل الطفل في براءة:

ألن يعود جدو من سفره؟

أجابته «مديحة» في حزن:

لا يا بني.. إن المكان الذي ذهب إليه جدو، لا يعود منه أي إنسان.

بدا الضيق على وجه الطفل البريء وهو يقول:

ولكنني في حاجة إليه يا أمي.. فقد كان يشاركني ألعابي ولهوي.. وكنا نلعب معاً ألعاباً كثيرة.. فلماذا تركني وسافر وحده دون أن يأخذني معه؟

استدارت «مديحة» لتحتضن طفلها كأنها تخشى عليه من خطر ما وهي تخفي دمعة أوشكت أن تسقط من عينيها.. وألقت نظرة على صورة «الشيخ عمّار».

كانت ابتسامة عريضة تزين الوجه الطيب.. فلم يشأ أن

يودع العالم منذ عامين إلا بابتسامة كبيرة وكأنه نال كل أحلامه وما تمناه في سنواته الأخيرة، فبات قرير العين ولم يفتحهما ثانية.

كانت هناك صور عديدة متناثرة تجمع بين الراحل وطفلها.. وهما يلهوان معاً.. وهما يأكلان.. حتى وهما راقدان في فراش واحد.

غادر «الشيخ عمّار» الدنيا راضياً، تاركاً لها ثروة ضخمة.. وطفلا صار يحمل اسمه. تمالكت «مديحة» مشاعرها والتفتت إلى ابنها.. كانت ملامحه صورة مكررة من والده.. وكأنها تؤكد لها كل لحظة أن ذلك الطفل لا ينتمي للشيخ الراحل أبداً.. وأن الاسم المدون في خانة الميلاد لا يعني شيئاً أمام الملامح التي لا تقبل إنكاراً.

وهمست بضعف لابنها: أرجوك يا «عمر».. كن هادئاً حتى أعود فنتناول غداءنا معاً.

دق الطفل الأرض بقدمه غاضباً وهو يقول: هل ستتركينني أيضاً؟

ربتت «مديحة» فوق رأسه في حنان قائلة:

أنت تعرف أن ورائي عملاً كثيراً.. ولكنني أعدك بأني لن أتأخر عليك.

وأقبلت مربية شابة، فاستدارت «مديحة» إليها متسائلة: كيف حال «عمر» معك؟

أجابتها المربية وهي تداعب «عمر»:

إنه يحفظ الحروف الأبجدية بسرعة، وصار يستطيع تشكيل كلمات صغيرة منها، بل وكتابة اسمه أيضاً.

بان الرضى على وجه «مديحة»، وقالت:

هذا جيد.. فإنني أريده عندما يلتحق بالحضانة بعد شهر، أن يكون أحسن تلاميذها.

وغادرت «الفيلا» إلى حديقتها الواسعة.. اشتراها «الشيخ عمّار» قبل وفاته وسجلها باسم «عمر».

كانت أزهارها النضجة المتفتحة تؤكد وصول الربيع مبكراً ذلك العام، وعبقت الحديقة برائحة عطرة انتعشت لها «مديحة».. كان البستاني الجديد الذي عينته منذ أسابيع قليلة ماهراً حقاً.. واستطاعت من خلال عدد من العملاء

استيراد بعض الزهور النادرة لتضمها حديقة «الفيلا» الأنيقة فصارت تحفة للناظرين.

وتقدم سائقها الخاص يفتح باب السيارة الفاخرة فأخذت «مديحة» مكانها في المقعد الخلفي التي انطلقت بها نحو مدينة «العاشر من رمضان» الصناعية.

وطالعتها إعلانات مصنعها تملأ أركان المدينة ولافتات الطريق المؤدية إليها.. وعندما توقف السائق أمام بوابة المصنع الضخمة، غادرت «مديحة» السيارة ومدت يدها للسائق بشيك بمبلغ ضخم قائلة: خذ هذا الشيك إلى إمام مسجد «الشيخ عمّار»، واسأله إن كان في حاجة لمبلغ آخر لإعادة فرش المسجد وتجديده، أو للإنفاق في أمور الخير، وعد بعد ذلك، فهناك بعض المبالغ ستحملها للأشخاص أنفسهم الذين كان «الشيخ عمّار» رحمه الله يتصدق عليهم بها.

سأفعل يا سيدتي.

ودس السائق الشيك في جيبه وانطلق بسيارته عائداً إلى «القاهرة»..

وخطت «مديحة» إلى داخل مصنعها الضخم.. كان هناك

عدد من الموظفين في انتظارها وكل منهم يحمل دفتراً أو أحد الملفات.. واتجهت إلى أولهم متسائلة: هل تم تصدير صفقة الملابس لـ «أمريكا»؟

أجابها مسؤول التصدير قائلاً:

أمس مساء.. وجاءنا «فاكس» آخر منهم يطلبون نصف مليون قطعة أخرى.

سألته باهتمام:

والسوق الأوروبية المشتركة؟

أجابها في سرور واضح:

سيصل إلينا مندوبهم بعد أسبوع لعقد صفقة متكافئة بيننا وبينهم قدرها خمسون مليون دولار.

استدارت إلى مدير المشتريات قائلة:

والمواد الخام التي طلبنا استيرادها من «الأرجنتين»؟

فأجابها وهو يقدم لها ورقة «فاكس» تحمل تاريخ اليوم:

هناك أربع بواخر محملة بها، ستغادر الموانئ غداً على أكثر تقدير.. وقد أرسلوا إلينا «فاكس» يفيد بتخفيض عشرة في

المائة من ثمن المواد الخام، تقديراً لأن معدل حجم استيرادنا منهم قد زاد إلى الضعفين خلال عامين فقط.

ألقت «مديحة» نظرة على «الفاكس» ثم استدارت إلى المدير المالي متسائلة:

رائع.. وهل وافق البنك على القرض الذي طلبناه؟

أجابها المدير الشاب:

ليس بعد، فالقرض ضخم جداً وأصولنا لا تغطيه، ولكن هناك رأي عام بالموافقة داخل البنك، نظراً لحجم أرباحنا وسمعتنا في السوق، وسدادنا للقروض السابقة في مواعيدها.

أومأت برأسها في ارتياح واستدارت إلى سكرتيرتها الخاصة:

وهل كل شيء معد في حجرة مجلس الإدارة؟

أجابتها السكرتيرة في لهجة احترام وتوقير:

جميع الأعضاء بانتظارك لمناقشة سياسة الإنتاج خلال السنة المالية الجديدة.

عندما خطت «مديحة» إلى حجرة الاجتماع يتبعها طابور مديري مصنعها، هب الحاضرون وقوفاً.. وأشارت لهم «مديحة» بالجلوس وهي تأخذ مكانها في مقدمة منضدة الاجتماع.

واستغرق الاجتماع أكثر من ثلاث ساعات، قبل أن يتم الاتفاق على سياسة الإنتاج وحجم التصدير..

والتقطت «مديحة» أنفاسها أخيراً في مكتبها الصغير الأنيق وهي ترشف فنجان شايها.

كانت هناك عدة شاشات تليفزيونية داخلية حولها، أدارتها لتراقب كل أقسام المصنع.. كان كل شيء يسير مضبوطاً مؤكدة نجاح الشعار الذي رفعته في إدارة المصنع منذ تولت تلك المهمة.. الحسم والثواب والعقاب.

وأغمضت عينيها في ارتياح.. كان قرارها صائباً عندما أقنعت «الشيخ عمّار» قبل وفاته ببيع كل مصانعه الصغيرة ليشيد ذلك المصنع الضخم برأسمال عشرة ملايين جنيه اقترض نصفها من البنوك..

ولكن القدر لم يمهل «الشيخ عمّار» لإكمال بناء المصنع.. ولم يكن هناك مفر لها من اقتحام العمل بنفسها.. وفي شهور قليلة أتمت البناء وبدأت الإنتاج. وخلال عامين فقط تضاعف رأسمال المصنع.. مع تضاعف الإنتاج والأرباح.. فسددت قروض البنك وابتاعت أرضاً مجاورة ليتوسع المصنع عليها.

صاروا يطلقون عليها في سوق النسيج اسم المرأة الذهبية.. فما من صفقة تضع يدها عليها إلا وتربح منها الملايين.. وما من موديل تقترحه وتصممه حتى يكتسح السوق. وكانت لها قدرة عجيبة على إقناع العملاء بمنتجاتها.. وإقناع البنوك بمنحها الملايين قروضاً، لتضاعف من توسعات المصنع وتفتتح خطوط إنتاج جديدة تبشر بأرباح ضخمة.

كانت تستحق بحق لقب المرأة الذهبية.. حتى أن الجميع صاروا يقولون إنها ولدت سيدة أعمال ناجحة.

وحاول العشرات من رجال الأعمال نسج خيوط شباكهم عليها.. ولكنها صارت محصنة لمثل تلك الأشياء.. أغلقت قلبها بقفل كان مفتاحه في يد طفلها.. واستحال أن يمتلكه رجل آخر.

صار قلبها في قساوة الصخر.. لم تسمح لأي مشاعر أن تغزوها أبداً.. كانت تتذكر عبارة «كمال» التي قالها يوماً ما.. إن المال هو عصب الحياة.. وإنه أهم شيء في هذه الدنيا.

تعلمت تدرس متأخراً رغما عنها.. وكم كان مفيداً لها.

والتقطت بضع مجلات إنجليزية وفرنسية.. كانت لا تزال

في منتصف الطريق لتعلم اللغتين وهي تتلقى دروساً خاصة مسائية فيهما.

وتصفحت المجلات في رضى، صارت قدرتها على القراءة والاستيعاب باللغتين لا بأس بها.. وامتدت يدها إلى جريدة «الأخبار»، وتصفحت أسعار البورصة وأسعار العملات الأجنبية.. كان ذلك هو أول ما يجذبها في الجرائد المحلية.. ودون اهتمام راحت أصابعها تقلب في الصفحات الداخلية وهي تستعد لمغادرة مكتبها. وتسمرت عيناها أمام الصورة المنشورة في صفحة الحوادث.

كانت صورة سيارة فاخرة مهشمة تماماً.. وإلى جوارها صورة لشخص يستحيل أن تخطئ ملامحه ولو غاب عنها ألف عام.. شخص له نفس ملامح ابنها.

«كمال الشريف».

وقرأت «مديحة» العناوين كالمحمومة «إصابة رجل أعمال في حادث سيارة إصابة بالغة».

وكانت السطور التالية تحمل تفاصيل الحادث، فقد اصطدمت السيارة بشاحنة نقل على الطريق السريع فتهشمت

تماماً، ونجا صاحبها من موت محقق، ولكنه اصيب في عموده الفقري إصابة خطيرة حطمت عدداً من الفقرات وإصابته بشلل في ساقيه، حيث لا أمل في العلاج إلا بعدد من العمليات الجراحية الصعبة والخطيرة.

ارتجفت أصابع «مديحة».. أصابها ما يشبه الذهول والشلل.. سقطت الجريدة من يدها.. كأنها لا تصدق أن ذلك الجسد الفوار بالحياة يمكن أن يقعده الشلل.. لا تصدق أن هاتين العينين الرماديتين القاسيتين يمكن أن يسكنهما الألم والأوجاع والدموع.

أرادت أن تصرخ.. تبكي.. تضحك..

لم تدر ما تفعل.. هل تسعد لأن الشلل أصاب ذلك الإنسان الذي أذلها وأوشك أن يدمر حياتها.. هل تشمت فيه.. هل تسعد لانتقام القدر؟

ولكنه والد ابنها.. حتى لو حملت شهادة ميلاده اسماً آخر.

ولكن حتى ذلك الخاطر لم يحرك أي مشاعر بداخلها.. كأنما ماتت كل مشاعرها يوم أن طردها خارج أسوار حياته..

صار قلبها أشبه بصخرة يستحيل أن تخدشها أي مشاعر إنسانية.. ألم أو فرح.

لقد رأت بعينيها انتقام السماء.. وكان ذلك يكفيها.. وفي هدوء طوت صفحة الجريدة وألقتها جانباً.

وعادت متلهفة إلى وحيدها.. لتراجع معه دروسه.. وكي لا تتأخر عن دروس الإنجليزية والفرنسية!

* * *

اللقاء

وأقبل الشتاء عاصفاً تصحبه سيول من الأمطار وجيوش السحب مدججة بسيوف البرق.

كانت «مديحة» جالسة في مكتبها تراجع كشوف الإنتاج للشهور الماضية، ووقع بصرها على نافذة المكتب الزجاجية، ومياه الأمطار تسيل فوقها كما لو كانت دموعا باردة تنتحر فوق الزجاج اللامع، فأحست ببعض البرد بالرغم من معطفها الثقيل، وضغطت زر جهاز التكييف إلى جوارها، فانبعث الدفء اللذيذ في أركان المكتب.

وطرق المكتب.. وخطت سكرتيرتها داخلة وهي تقول: هناك شخص يرغب في مقابلتك يا سيدتي.

تساءلت دون اهتمام:

من ؟

أجابته السكرتيرة في حيرة:

لا أدري.. إنه لم يشأ أن يخبرني باسمه.. ولعله خشي ألا تقابليه.

تعقد حاجبا «مديحة» وتساءلت في دهشة: هذا غريب.. ترى من يكون؟

وأشارت إلى سكرتيرتها قائلة: أدخليه لأراه قبل انصرافي.

وما كادت السكرتيرة تغادر المكتب.. حتى خطا «كمال» داخلاً.

كتمت «مديحة» شهقتها.. كان اللقاء مفاجئا ولم يدر بخلدها أبداً أن ذلك الشخص سيكون هو.. «كمال الشريف».. وغمغمت في استنكار: أنت؟

وتنبهت إلى شيء غريب.. كان «كمال» واقفا فوق ساقيه.. كان بهما عرج خفيف غير ملحوظ لاحظته عند دخوله.. ولكنه لم يكن أسير مقعد متحرك باي حال.. ولا يسير حتى مستنداً على عكازين.

كأنه يتحدى القدر ويؤكد لها استحالة هزيمته.. أو كأنه

جاء ليسدد لها لطمة أخرى وهي تراه مكتمل الصحة سليم البدن .

وأغضبها ذلك الخاطر، فهبت واقفة وهي تصيح به في غضب حاد : ما الذي جاء بك إلى هنا . . كيف جرؤت على أن تأتي إلى هذا المكان؟

لم يرد « كمال » على الفور، بل نكس رأسه وإحساس قاتل بالمرارة يطوقه . . وتنبهت « مديحة » إلى أن ثمة تغييرات عديدة قد لحقت به . . كان شعره قد تحول كله إلى اللون الرمادي . . وشاربه أيضا تخللته شعيرات شيب عديدة وكأن عمره قد تضاعف خلال سنوات قليلة .

وكانت سترته مبتلة تماما وقد ظهر بها أكثر من تمزق . . وقد اتسخ بنطاله وحذاؤه . . كان كشخص آخر . . وعندما رفع عينيه شاهدت فيهما نظرة كسيرة ذليلة كأنهما لا تقدران على مواجهتها . . اختفت النظرة الرمادية الباردة الواثقة . . وحلّت محلها نظرة جريحة متألمة . . نظرة لم تشاهدها في عينيه من قبل أبداً .

كأنه شخص آخر غير الذي كان!

وهمس يقول لها في رجاء وألم: هل تسمحين لي بالجلوس، فإن حالة ساقي لا تحتمل الوقوف طويلاً.

تجاهلت «مديحة» ما قاله.. أرادت أن تستمتع بإذلاله وضعفه وانكساره أطول وقت ممكن، والتهبت عيناها، واقتربت متنمرة وهي تقول له: أرى أنك تمكنت من تجاوز الإصابة والوقوف على ساقيك مرة أخرى، فأي حظ حسن تلاقيه حتى في مصائبك؟

أجابها «كمال» في انكسار لم يحاول إخفاءه:

لقد كلفني ذلك عشر عمليات جراحية بالخارج وعلاجاً طويلاً اضطررت بسببه لأن أبيع كل ما أمتلك.

واجهته «مديحة» بابتسامة ساخرة قاسية كالثلج، لم تشعر بأي شفقة أو عطف عليه، وتدفقت سخريتها وقسوتها رغماً عنها وهي تقول له:

لا أظن أن تلك مشكلة بالنسبة لك، فقد بدأت ذات يوم من الصفر، وأنت تستطيع تكرار هذه البداية مرة أخرى، مع بلهاء ثرية تضع يدك على كل ما تملكه بعد أن تخدعها وسامتك وكلامك المعسول.

لم ينطق «كمال».. أدار وجهه بعيداً.. كأنه لا يرغب في أن ترى مزيداً من الألم والانكسار في عينيه.. همس يقول في مرارة: مهما قلت أو فعلت فلن ألومك.. لقد أخطأت في حقك وظلمتك ظلماً فادحاً، وليس لي أن ألومك ولو أطلقت علي الرصاص.

رفعت «مديحة» حاجبيها في سخرية قائلة:

يا للعجب.. الآن فقط تعترف بما اقترفته في حقي من آثام.. فيا لي من محظوظة.. إن هذا اليوم هو يوم سعدي دون شك.. فهل ترغب أن أوزع العصائر والحلوى على العاملين في المصنع بهذه المناسبة، أم أمنحهم المكافآت السخية؟

واقتربت منه أكثر.. وواجهته بعينين تشعان غضباً وثورة، وغمغمت في صوت محترق: والآن أخبرني ما الذي أتى بك، قبل أن أستدعي الأمن، فيلقون بك إلى قارعة الطريق وسط الأوحال.. أو لعلي أفكر في تلفيق أي تهمة لك تلقيك في السجن، كما أوشكت أن تفعل بي يوماً ما.

ارتعدت شفتا «كمال» وارتجف بدنه.. بدا كأنه يغالب قوة قاهرة وهو يقول:

لست أريد منك غير شيء وحيد.

واعتصر حافة المكتب بأصابعه وهو يكمل في مرارة: لست أرغب إلا في رؤية ابني.

واجهته «مديحة» في استنكار وسخرية:

ابنك؟

وأضافت في صوت كالفحيح وكل ملامحها تتنمر:

أي ابن هذا الذي تتحدث عنه؟

استند «كمال» بقوة إلى حافة المكتب باذلاً أقصى قوته لكي لا ينهار وهو يقول:

إنه ابني أنا.. أنت تعرفين أنه ابني حتى لو دوّن شخص آخر باسمه في خانة الأب.

مطت «مديحة» شفتيها في استهزاء وسخرية، وارتسمت في عينيها نظرة ماكرة وهي تقول له:

أحقًّا ما تقول.. وأي إثبات عندك في ذلك.. ألم تسجل أسماءنا أنا وأنت في «الغردقة» كرجل أعمال وسكرتيرته.. والشقة المفروشة كانت باسم مستعار، وشاهدا العقد لن تضمن شهادتهما الآن بعد أن أغلقت شركتك.. فأي دليل على أن

«عمر» هو ابنك.. أليست هذه هي كلماتك.. أم أنك جئت تساومني بعد أن فقدت كل شيء، وترغب في تهديدي مقابل بعض المال وإلا فستنشر الفضيحة على الملأ.. هيا أخبرني ما هي الحقيقة.. أم انك تريد الظهور بمظهر الأب الذي استيقظ ضميره.. ويرغب في إصلاح الماضي.. ولكنك في الماضي خدعتني طويلاً ولم يعد بإمكانك خداعي هذه المرة أيضاً.. فأخبرني.. كم من المال تريد لتبيعني أبوتك الزائفة التي لم تستيقظ من سباتها الطويل إلا عند حاجتك للمال.

اعتصر «كمال» قبضته في ألم وحشي وهو يجيبها:

لست أريد مالاً.. أرغب فقط في رؤية ابني واحتضانه بين ذراعي.

صرخت فيه في جنون: الموت أهون عندي من أن تمس ابني.. فأنت أحقر من أن تكون أباً.. إنك والده فعلاً، ولكني على استعداد لأن أمنعك عنه ولو كان الثمن حياتي.. لن أسمح لك أن تمسه ولا له أن تقع عيناه عليك لئلا تلتصقا بالشر والإثم اللذين يملآنك.. فأخبرني كم من المال تريد لكي

تغادرني إلى الأبد، فلا تقع عيناي عليك ثانية، ولا أسمع منك كلمات الأبوة الزائفة مرة أخرى؟

انهار «كمال» فوق أقرب مقعد، لم تحتمل ساقاه أكثر من ذلك، أخفى وجهه بكفيه وبدا كأنه موشك على البكاء، وقال في صوت طعين: أنت لا تفهمين.. لقد انتقم مني القدر أبشع انتقام.. إن الحادث لم يسبب لي مجرد شلل نصفي عولجت منه.. بل سبب لي أمراً آخر لا سبيل إلى علاجه أبداً.

ورفع كفيه عن وجهه.. كانت عيناه في لون الدماء ووجهه يرتعد.. وغمغم في صوت باك: لقد فقدت القدرة على الإنجاب إلى الأبد، فهل تدركين الآن أي عقاب قد نلت، ولماذا أسعى لرؤية ابني الوحيد الذي لن يكون لي سواه أبداً؟

كانت الصدمة قاسية لـ «مديحة»، حتى أن الكلمات خرست في لسانها.. أصابها ارتعاد استندت إلى حاجز مكتبها كي لا تنهار أيضاً..

كان يجلس أمامها حطام إنسان.. بلا حاضر.. بلا مستقبل.. ليس له غير ماض.. وأي ماض؟؟

لم يأت «كمال» من أجل ابتزازها وسلب نقودها أو التهديد.

كان يرغب حقاً في رؤية ابنه.. ابنه الوحيد.. وقد استحال عليه أن يصير أباً مرة أخرى.

جاء ليسلبها ابنها.. ابنها وحدها.. الابن الذي رفض الاعتراف به من قبل، جاء ذليلاً كسيراً يسعى فقط لإلقاء نظرة عليه.

وصرخت فيه بجنون: أين كنت كل السنين الماضية لتأتي الآن وتطالب بابنك.. ليس لك أي حق فيه.. وإذا شئت أن تقاضيني وتثبت أبوّتك لـ«عمر» بعقد الزواج فلا تظن أنني ساستسلم لك، بل سآتي بضحاياك واحدة وراء الأخرى لأفضحك في قاعة المحكمة وأريك قدر الفضيحة الذي ستناله هذه المرة.. وليعرف كل الناس أي أب عطوف أنت!

وتعالى صوتها أكثر فصار كالزئير وهي تواصل قائلة دون خشية من الفضحية: سوف أقوم بتعيين أكثر من حارس على طفلي لأمنعك من الاقتراب منه أو لمسه.. وإذا حاولت أن تقوم بإحدى ألاعيبك أو اختطافه فلا تلومن إلا نفسك، فلن يكون مصيرك غير السجن.. والآن اذهب عني.. فلم أعد أحتمل بقاءك في مرمى بصري.

تحامل «كمال» على نفسه.. غادر مقعده وهو يستند على حافة المكتب.. كانت ساقاه لا تقويان على حمله..

ولكنه سار وهو يجاهد ليمنع نفسه من السقوط.. وتوقف أمام الباب واستدار ليلقي عليها نظرة حزينة طعينة.. نظرة حملت كل ندمه القاهر.

ارتجفت شفتاه ولكن الكلمات لم تطاوعه على النطق وخذلته إرادته.

وعندما غادر المكان تنفست «مديحة» في ارتياح وانهارت فوق مقعدها.

كان الأمر أشبه بالكابوس، لن تسمح لنفسها بأن تسقط في دوامته مرة أخرى مهما كان الثمن..

وغمغمت في صوت كالفحيح بعينين مفتوحتين عن آخرهما: لن يمس هذا الوغد ابني مهما كان الثمن.. ولو اضطررت لأطلاق الرصاص عليه لأمنعه من ذلك.

* * *

المفاجأة

ولكن القلق عصف بـ « مديحة » في الأيام التالية، وصار هاجس قلق يهاجمها كل لحظة، ماذا لو حاول « كمال » اختطاف « عمر » واختفى به عن عينيها إلى الأبد .. لقد أصبح رجلاً يائساً وهو على استعداد لأن يفعل أي شيء.

وفي الحال قامت بتعيين اثنين من الحراس الخصوصيين، أحدهما لمرافقة ابنها في ذهابه وعودته للمدرسة، والبقاء في انتظاره طوال الوقت أمام باب المدرسة، والآخر كان مكلفاً بحراسة « الفيلا » ليلاً خشية محاولة « كمال » اقتحامها لاختطاف ابنها أو تهديدها، ومنحت كل حارس صورة لـ « كمال » ليتعرفا عليه إذا شاهداه في أي وقت.

ولم تنس أيضاً تحرير مذكرة في قسم الشرطة القريب، تتهم فيها « كمال » بتهديدها باختطاف ابنها، لخلافات سابقة بينهما.

وصدر أمر النيابة بضبط وإحضار « كمال » .. فصار مطارداً من العدالة .

ولكنه اختفى .. ولم تقع عليه عين منذ ذهب إلى « مديحة » في مكتبها .. وفشل رجال الشرطة في العثور عليه، فلم يعد له مكان سكن معروف أو مهنة يتعيش منها بعد أن باع كل ما كان يمتلكه في رحلة علاجه .. اختفى تماما دون أن يترك خلفه أي أثر .. كأنه تحول إلى شبح .

ولكن قلق « مديحة » ظل يعصف بها برغم ذلك .. وظلت تتقلب على جمر الخوف من المجهول .. ماذا لو كان « كمال » يدبر لها أمراً تجهله يسلب منها وحيدها وفلذة كبدها؟

وجاءها « عمر » ذات يوم عائداً من مدرسته وهو يحبس دموعه في عينيه .. فسألته « مديحة » في ارتعاد : ماذا جرى يا « عمر » .. لماذا تبكي؟

فأجابها وهو ينهنه ويمسح دموعه :

لقد أخبرتني أن جدو « عمّار » هو بابا أيضاً .. ولكن زملائي في المدرسة يقولون أن جدو ليس بابا .. وكل منهم له جدو وبابا غيره .. فأين أبي .. هل سافر مثل جدي أيضاً؟

لم تتمالك «مديحة» نفسها وامتلأت عيناها بالدموع ولم تنطق.. لم يكن لديها ما ترد به على سؤال طفلها.

وظلت تلك الليلة مسهدة أرقة لا يغزو النوم جفنها.. ووقفت تراقب طفلها من نافذة حجرتها وحارسه يأخذه إلى مدرسته في الصباح بسيارة خاصة.

وخلال النهار لم تستطع أن تفعل شيئاً.. مزق الخوف طمأنينتها وبعثر أمانها.. أحست بخطر مفاجئ على طفلها لم تدر له سبباً، ولكنه أخذ يتعاظم حتى لم تعد قادرة على البقاء مكانها.. ووجدت نفسها ترتدي ملابسها وتهرع إلى سيارتها وتقودها في جنون إلى المدرسة..

وهرعت إلى حارس طفلها الذي استقبلها في دهشة في موقف السيارات على الرصيف الآخر المقابل لباب المدرسة متسائلاً: «مدام مديحة» ما الذي أتى بك.

سألته في لهفة وذعر:

«عمر».. هل حدث له شيء؟

أجابها مطمئناً:

لا.. أبداً.. إنه لا يزال داخل مدرسته ولم يغادر فصله.

عادت تسأله في توتر أشد:

هل أنت متأكد؟

تماماً.

ولكن خوفها لم يتبدد واندفعت تعبر الطريق داخلة المدرسة إلى فصل طفلها دون استئذان.. ووجدت «عمر» في مقعده منهمكاً في كتابة بعض الحروف والكلمات في كراسته، فانسحبت من الحجرة في هدوء وقد استردت طمأنينتها.

واقتربت من الحارس، وقالت له في ارتياح: الحمد لله فـ«عمر» في فصله وليس هناك ما يقلق.

وصمتت وهي تستشعر توتراً لا تدري له سبباً.. واحترم الحارس صمتها فلم ينطق.

وتلفتت «مديحة» إلى الرصيف الآخر أمام باب المدرسة كأنها تبحث عن سبب توترها الخفي فوقع بصرها على ذلك الرجل في حلته الداكنة المتسخة وقد غطت رأسه «كاسكيتة» عريضة أخفت نصف ملامحه وقد غيرت لحيته النابتة ملامحه كثيراً.

أوشكت «مديحة» ألا تتعرف عليه.. لولا مشيته التي بدا فيها عرج خفيف لا تلاحظه إلا عين مدققة.

ولكنها شاهدت نفس المشية من قبل ويستحيل أن تخطئ في التعرف على صاحبها.. كان هو.. «كمال الشريف»!

وشهقت «مديحة» وكتمت صرخة فزع، وتطلع إليها الحارس بدهشة متسائلاً: ماذا هناك يا سيدتي؟

أشارت نحو «كمال» في رعب قائلة:

هذا هو.. «كمال الشريف».. لقد جاء لاختطاف «عمر».

أجابها الحارس بدهشة:

ولكن هذا مستحيل.. فهذا الرجل يقف أمام أبواب المدرسة كل يوم، ويوزع الحلوى على الأطفال دون مقابل، وكان دائماً يصر على منح «عمر» أغلى حلوى ويحتضنه ويقبله دون أن يحاول إيذاءه أبداً.

أوشكت «مديحة» أن تطلق صرخة وهي تقول:

أخبرتك أنه هو أيها التعس.. وهو ينتظر الفرصة الملائمة لاختطاف طفلي.. والآن أسرع إلى القسم، وأحضر قوة من رجال الشرطة لضبط هذا المجرم.

تطلع الحارس إلى « مديحة » في دهشة وحيرة فصاحت فيه: أسرع.. لا وقت للتمهل والتساؤل فهذا الرجل خطر جداً.

فقفز الحارس إلى سيارته وانطلق بها تجاه قسم الشرطة القريب.

وتعلق بصر « مديحة » بـ « كمال ».. كان من الواضح أنه غائب عن العالم وأنه لم يتنبه لوجودها.. كانت عيناه شاردتين زائغتين ويده القابضة على الحلوى التي امتلأت بها جيوبه ترتعد كما لو كان تيار كهربائي يمسها.

وظهر « عمر » قادماً من فناء المدرسة مع بعض زملائه.

لم تنتبه « مديحة » إلى دق جرس انتهاء اليوم الدراسي لشدة استغراقها في مراقبة « كمال ». وراقبت عينيه اللتين تعلقتا بطفلها.. تسمرت العينان على « عمر » وبدت في المقلتين دموع حبيسة يخشى صاحبها إطلاقها..

لم تستطع « مديحة » الحركة وعبور الطريق لتكون في استقبال طفلها.. أحست بشلل.. بقوة ترغم إرادتها على السكون كأنها فقدت سيطرتها على جسدها. ومن مكانها شاهدت « كمال » وهو يحتضن طفلها ويرفعه بين يديه وهو

يقبله ودموعه تسيل فوق خديه ثم يمنحه قبضة مليئة بالحلوى..

وشاهدت طفلها يمد أصابعه الحانية فيمسح دموع «كمال» ويربت فوق وجنته الخشنة برفق.. فأغمض «كمال» عينيه كما لو كان قد تلقى بلسماً شافياً لكل أوجاعه.

أوشكت «مديحة» على الصراخ.. خشيت على طفلها.. ولكنها شاهدت «كمال» وهو يعيد «عمر» للأرض ويربت فوق رأسه في حنان.

وتلفت «عمر» بعينيه باحثاً عن حارسه الخاص.. ووقع بصره على والدته على الرصيف الآخر فهتف في سرور: ماما.

واندفع بلا وعي يعبر الطريق المزدحم بالسيارات المارقة دون انتباه.

وصرخت «مديحة» في رعب وهي تشاهد السيارة القادمة من الاتجاه الآخر: حاذر يا «عمر».

ولكن صرختها جاءت متأخرة جداً.

* * *

الميلاد الجديد

صرخت « مديحة » صرخة أودعتها كل لوعتها وأمومتها وهي تشاهد السيارة المارقة توشك أن تطحن طفلها تحت عجلاتها .

ولكن فجأة حدث شيء غير متوقع .

غير متوقع على الإطلاق بالنسبة لرجل مصاب في عموده الفقري ويعاني من عرج وإصابة حديثة . . كانت صرخة « مديحة » كفيلة بانتزاع « كمال » من شروده وذهوله . . وبنظرة واحدة شاهد ما يوشك أن يحدث . .

ودون تفكير وفي لحظة خاطفة قفز إلى وسط الطريق في سرعة عجيبة لا تناسب حالته الصحية، واحتضن طفله بين ذراعيه ليحميه من الصدمة القاتلة . .

وشاهدت العيون المذهولة السيارة وقد ضغط سائقها على كوابحها فزحفت على الطريق وإطاراتها تختل بها في صريخ

عال.. وتباطأت سرعتها قليلاً ولكنها قبل أن تتوقف تماما أطاحت بذلك الرجل القابض على طفله بين أحضانه لحمايته من أي خطر.. فألقت به بعيداً نحو الرصيف.

وزمجرت عجلات السيارة بفرملة حادة وهي تتوقف أخيراً.

وأفاق الواقفون من ذهولهم للمشهد العجيب.. وصرخت «مديحة» وقد تخلصت من شللها واندفعت نحو طفلها.

كان سليماً لم يمسه خدش واحد.. وأخذ يبكي وهو يربت فوق جسد أبيه الممدد إلى جوار الرصيف وهو ينزف بالدماء دون أن يطلق آهة واحدة.

تعلق بصر «مديحة» بـ«كمال» وهي تغالب دموعها.. ولم تجد ما تقوله، وعض «كمال» شفتيه وقال وهو يكتم آلاما قاتلة: هل جرى لطفلك ما يسوء؟

ابتلعت لعابها وقالت متهنهنة: بل هو سليم لم يمسه سوء.. فقد أنقذت حياته.

لم تكن في عينيه ذرة لوم واحدة، بل كساهما تعبير عجيب من التسامح وهو يقول لها:

كيف تخيلت لحظة واحدة أنني قد أمس طفلك بسوء أو أحاول انتزاعه منك..

إنني لست جديراً بأن أكون أباً له..

همست «مديحة» تقول ودموعها تغرقها:

أرجوك.. توقف عن الحديث، فهو يؤلمك ويستنزف طاقتك.

ولكن وجهه أشرق بنور السعادة وهو يقول:

لو أنني مت الآن، لمت راضيا عن نفسي لأنني أصلحت بعض خطئي، وأنقذت حياة طفلي..

وحدق في عينيها لحظة ثم قال في ألم أشد: بل طفلك وحدك.. فلست أستحق أن أكون أباً له.

تغلبت «مديحة» على مشاعرها.. في لحظة واحدة امحت من ذاكرتها كل الآلام والأوجاع الماضية كأنها لم تكن..

كان صاحب الجسد المصاب الممدد أمامها هو الشخص الذي أنقذ حياة ابنها مضحياً بحياته هو.. كان ذلك هو ما وعاه عقلها في تلك اللحظة.. لا يفعل ذلك إلا إنسان زهد عن العالم كله وصار يراه قبض ريح.

والتفتت «مديحة» صارخة في الواقفين: ليستدع أحدكم سيارة إسعاف.

قال «كمال» متألماً وهو غير قادر على رفع ذراعه:

لن تفيد بشيء.. إنني أشعر أنها النهاية.. إنها عدالة السماء وقد حقت علي.

تشبثت «مديحة» بذراعه في توسل ودموعها تغرقها قائلة:

لا.. إنك لن تموت.. فطفلك بحاجة إليك.. إنه في حاجة إلى أب.

أشرق وجه «كمال» واستعاد بعض بهائه السابق، وقال بفرحة:

لا أكاد أصدق أنك تقولينها.

بذلت «مديحة» جهداً بالغاً لتقاوم آهاتها ودموعها وهي تقول له:

يجب أن تقاوم آلامك وجراحك لتعيش.. تغلب عليها كما تغلبت على إصابتك السابقة.. افعل ذلك لأجل ابنك هذه المرة.

أغمض «كمال» عينيه لشدة الألم، فواصلت «مديحة» في

صوت أقرب إلى الجنون، لا تستسلم يا «كمال».. إنني مستعدة أن أنفق عليك كل مالي لتعود كما كنت.. ليس «عمر» وحده من هو في حاجة إليك.. أنا أيضاً في حاجة إليك.. صدقني.. لست أراك الآن سوى أب حنون عطوف.. وأنا واثقة أننا سنستعيد معا ذكريات قديمة جميلة.

فتح «كمال» عينيه.. بدا بصرها أسيراً لعينيه الجذابتين الجميلتين.. كأن القلب يستعيد رواءه السابق وأحلامه الجميلة..

قال ودموعه تختلط بدمائه: كيف طاوعني قلبي على خداعك، كيف طاوعني على إلقائك في أتون العذاب والعار دون رحمة أو شفقة.. وأنت التي تمتلكين هذا القلب الذهبي المتسامح.. إنني أشعر الآن كأنني تطهرت من كل آثامي السابقة.. كأني ولدت من جديد.

وعض شفته السفلى بقوة كأنه يغالب ألماً قاسياً لا طاقة له به، وهمس يقول لها: أخشى إن إعترفت لك بانني في رحلة علاجي كانت صورتك تلازمني طوال الوقت.. كنت أناجيك وأتوسل إليك.. وكانت صورتك التي يرسمها خيالي هي

الوحيدة القادرة على تخفيف آلامي وجراحي.. فأدركت لحظتها أنني كنت أحبك طوال الوقت، وإن كان غروري السابق وطيشي ورغبتي العمياء في الانتقام لحب قديم فاشل، قد أعمت عيني عن حبك.

ارتعدت «مديحة».. لم يكن من شك في صدق «كمال».. وتمنت لو تعترف له أنها قادرة على الصفح.. أن تستعيد كل ما كان لأجل طفلهما.

اندفع حارس طفلها الخاص مع رجال الشرطة وهو يشير نحو «كمال» صائحاً: ها هو المجرم.

ولكن «مديحة» صرخت فيهم: إنه والد طفلي فابتعدوا عنه.

وعندما احتضنت سيارة الإسعاف بدن «كمال»، أحاطت به «مديحة» و«عمر».. وقد تشبث ثلاثتهم بأيدي بعضهم البعض.. وفي عيونهم أمل ورجاء في المستقبل.

* * *

عدالة السماء

نشأت «مديحة» يتيمة فقيرة، لا عائلة لها، ولا قريب، فتعودت الاعتماد على نفسها .

وعندما اختار قلبها الحبيب، أوشكت على خنق حبها بسبب الفارق الكبير بينهما .

ولكن الحبيب لم يختر سواها .. فظنت أن العالم كله قد دان لها، وأن حياتها صارت نهراً من السعادة .. قبل أن تصحو على غدر الحبيب وخيانته .. فكيف كانت عدالة السماء؟

دار الجيل
للطبع والنشر والتوزيع